روثمان أزرق

أمال الديب

دار دريم بن للطباعة والنشر

العنوان : مدينة العبور - الحي السادس فيلا ٨ مدخل ١
هاتف : 010003288596
بريد إلكتروني : Dream.pen92@gmail.com

روثمان أزرق

آمال الديب

الطبعة الأولى، القاهرة ٢٠٢٠م
غلاف: غادة خليفة
التصميم الفني: الديوان للتصميم وخدمات النشر
رقم الإيداع : 11949 / 2020
I.S.B.N: 978-977-6794-27-6

جميع حقوق النشر محفوظة، ولا يحق لأي شخص أو مؤسسة أو جهة إعادة إصدار هذا الكتاب، أو جزء منه، أو نقله بأي شكل من الأشكال، أو وسيلة من وسائل نقل المعلومات، ولا يجوز تداوله إلكترونيًا نسخًا أو تسجيلًا أو تخزينًا، دون إذن خطي من الدار

روثمان أزرق

رواية

آمال الديب

DREAM PEN
FOR TRANSLATION & PUBLISHING
AND DISTRIBUTION

إهداء

"إلى آن
وفاطمة
وهاميس
ربما فعل الكتابة في دمائكن ينبت روايات لا تنتهي
أحبكنَّ جميعًا"

آمال

الثورة ليست أكذوبة..

قد تكون بروفة تحتاج إلى تعديلات في السيناريو بانتظار تنفيذ مختلف، ربما في زمان آخر!

(١)

في تلك الرقعة المدوَّرة التي اتسعت من سقف الروح.. أجلس متحفِّزة أتابع ما يدور.. يبقى يومان على موعد دورتي الشهرية.. لماذا أشعر أنها لن تأتي؟ بل ليس مجرد شعور.. أنا واثقة أنها لن تأتي..

"أنا حامل".

(صوت يتردَّد بداخلي).. هل أنا صاحبته حقًا؟!

❖ ❖ ❖

"تلك الروعة التي عشتها معك في تلك الساعات كان لا بد أن تُخلِف حملاً.. لو قدِّر لهذا الجنين أن يعيش سيكون ولدًا.. سيأخذ منك هذا الحسّ الساخر من كل شيء في الحياة.. وقوامك الممشوق.. وغمازتي خديك. سيأخذ مني جرأتي حدَّ الوقاحة في بعض الأحيان.. إحساسي المفرط بالمسؤولية.. سيشكِّل بمفرده واقعًا يحياه بعيدًا عن كلينا.. سيتعامل بمنتهى الحسم مع ذلك، ولن يذكره في مقتبل أيامه.. سيشعر منذ اللحظة الأولى أنه نتج عن شبق أنثى منفلتة.. ورجل يعشقها حد الذوبان -فقط في الفراش- ويتغزَّل فيها مقسمًا أنها أروع أنثى ذوَّبت تفاصيله وذابت فيها!".

❖ ❖ ❖

الأيـام تمر.. لا أحـد يملك أبدًا أن يوقفها.. بنا.. دوننا.. الحقيقة الوحيـدة أنهـا تمر، ولكـن كيف؟! ربكة غير مسـبوقة لخطأ ليس مقصودًا بالمرة، لم أكن أظن أنني يومًا ما سأتعرض لهذه التجربة!

❖ ❖ ❖

أتلصَّـص عليَّ من تلك الرقعة ذاتها.. أرتدي بنطلونًا من الجينز الخشـن يليق بامرأة عملية لم يكن مظهرها يومًا في حسـبانها، وبلـوزة من القطن الخفيـف لا تصلح تمامًا لهـذا الجو الخريفي، ولا أنشـغل بذلك، فبداخلي حـرارة أعرف تمامًا مصدرها.. أعبر كل ناصية في الشـارع تؤدي إلى صيدلية، أسـأل كل صيدلي عن هـذا الدواء الذي يعالج المعدة أساسًـا واكتُشِـف بالصدفة أنه يسـبِّب الإجهاض، فنُسـي تمامًا أي شيء ما عدا أنه يُستخدم لإجهاض الحمل غير المرغوب فيه دون حتى استشارة طبيب!

نظرات كل صيدلي يسـمع الاسم تعرِّيني مرات بذلك الاتهام الـذي يوجِّهونـه جميعًـا إلـيَّ.. وفي كل مـرة يأتي الجـواب بعدم توافـره.. "ناقـص في السـوق"، "ماعنديـش لأ"، "مـش موجود"، "معاكـي روشـتة؟".. فـي المسـافة الفاصلـة بيـن كل صيدليـة وأخـرى دوامـة تتحوَّل إلى بركة راكدة بعد لحظات، إحسـاس بمذاق شوربة لحم البتلو قبل أن تنضاف إليها أية توابل، ولا حتى الملح.. تسألني تلك الأخرى المحتلة رقعتي المدورة دون أن تحمل نبراتهـا المكتومـة أي قـرار: "هو انتي لو لقيتي الـدوا دا هيعمل حاجـة أصـلاً؟".. إذا كان بداخلـي يقينٌ آخر يشـبه ذلـك اليقين

الفائت بأنني حامل، أن هذا الدواء لن يؤدي مفعوله فلماذا أبحث عنه؟!

منذ أعوام طويلة وأنا أومن أن الأدوية والعقاقير لا تأتي بأي نتيجة معي سوًى إذا كنت مقتنعة بداخلي أنها ستفعل، وقد أدَّى بي العناد في مرحلة من عمري إلى أن أجري جراحتين إحداهما هدَّدت حياتي فقط لهذا اليقين الغريب، بعد أن تعبت من البحث وقفت أمام صيدلية صغيرة تردَّدت قبل أن أسأل بها، والعجيب أنني وجدت بها علبة من تلك الأقراص، اشتريتها وانطلقت...

"ترى أهذا هو فعلاً الحل السحري؟!". بكل يقين يتردَّد بداخلي صوتي نفسه أن ليس كذلك!

❖ ❖ ❖

ها هي الأقراص صارت في يدي، ثم ماذا؟!

عليَّ أن ألتزم بمواعيد محدَّدة لتناول الأقراص إلى أن أشعر ببداية نزف، أو حتى بدم حيض عادي! الغريب أنني أنهيت علبة الأقراص كاملة ولم يحدث أي شيء!

من جديد أقفز إلى سقف روحي، في نفس الرقعة المدوَّرة، هل أتوهَّم أن استدارتها تزداد؟ ربَّما.. ليس هذا بالتأكيد أكثر ما يشغلني، تمرُّ الدقائق بانتظار تلك الطبيبة التي أجهلها تمامًا. وجدتها بالصدفة البحتة وأنا أهذي، ولم يكن أمامي إلا أن أخوض التجربة. كم شعرت بالأسف لأنني لم أخرج مع أصدقائي الثائرين في الميدان، لا لأثور، بل لأن فضولي لم يكتمل كفضولهم بعد تلك التجربة. صديقتي "الأنتيم" كانت

من ثوار ٢٥ يناير؛ صقلتها التجربة، وأنضجتها إلى حدٍّ مدهش. لكتابتها الآن مذاق مختلف، ربما كمذاق شوربة البتلو بعد إضافة الملح والبهارات الخاصة جدًا إليها.

❖ ❖ ❖

عقارب الساعة تأبى أن تتحرَّك. من رقعتي المدورة أنظر إلى تلك الأخرى الجالسة في استقبال العيادة وحيدةً، تنتظر الطبيبة التي كان موعدها في الثانية، وتتوهَّم أن الوقت بطيء رغم مرور نصف ساعة كاملة قبل أن تأتي الطبيبة. هل يُكسِبها جو العيادة الهادئ تمامًا مزيدًا من الجرأة لتطلق لسانها حين تلتقي الطبيبة معترفة بأنها حامل من صديقها؟!

❖ ❖ ❖

برودة الجو الشديدة وتأخُّر الطبيبة يزيدان من ارتباكي الذي أحاول تجاهله. أطرافي تقترب من التجمُّد! البرد حطَّ فجأةً وكأنه كان يتربَّص بي متحيِّنًا فرصة الانقضاض.

أسمعني هناك في الداخل أقول: "أنا حامل ومش عندي رغبة أحتفظ بالبيبي"، بل ليس هكذا، تلك طريقة صادمة.. "بصِّي حضرتك.. أنا كنت واخدة حقنة ولما دورتي اتأخَّرت شكِّيت انه حمل، فجبت الأقراص دي خدتها من نفسي، بس ماحصلش حاجة"! هل سأجرؤ أن أقول لها ذلك؟!

الوقت مَحرَقَةٌ لأعصابي، أنهار تدريجيًا.. متى ينتهي كل هذا؟! أفيق مع دخول الطبيبة التي ذكَّرتني طلَّتها بممثلة من الستينيات لا أستطيع تذكُّر اسمها، كما تشبه أيضًا لبنى عبد

العزيـز في فيلم "أنا حرة" .. نفس القوام.. نفس العيون الفسـتقية.. نفس الشعر القصير.. مظهرها يوحي بشيء من بقايا أرستقراطية.. كان عليَّ أن أظلَّ رفيقة القلق لدقائق أخرى لم أحسـب عددها ، ثـم اعتليت الرقعـة المدوَّرة من جديد.. متسـمِّعة الحوار الذي دار بين الطبيبة والأخرى التي انفصلت عني!

"أنـا ف علاقة.. وواخدة حقنة بـس متخيلة اني حامل.. وأخدت ميزوتاك.. وماحصلش إجهاض، وعملت اختبار وطلع إيجابي بس مش هاقدر اكمل الحمل" ..

وبصـوت زجاجـي تمامًـا لا يحمـل أي انفعال قالـت: "أنا مش ممكن اشـارك فـي جريمـة زي دي.. أنا ماليش دخـل هو منين.. لكـن ماقـدرش اسـاعدك.. اتفضلـي خـدي الكشـف وانتـي خارجة" .. قالتها بحسـم لم أتخيَّلـه فعلاً ، قلت لها إنني لم أتأكَّد بعـد ، فاقترَحَـت أن تلقي نظرة على رحمي.. وإذا بها تقول لي بعد أن وضعت عدسة السونار على بطني.. "موجود كيس حمل، وف نص الرحم بالظبط، وحالته كويسـة مش وحشـة.. ممكن جدًا يكون الميزوتاك دا ماعملش أي حاجة"

"طب حضرتك ساعديني.." .

"آسفة.. ماقدرش" .

"طب حتى قولي لي بيستخدم ازاي؟" .

"أنـا لمـا باضطـر اعمـل إجهـاض باسـتخدم الميزوتاك مش باعمل كحت لكن ماقدرش اساعدك، ماقدرش حتى أقول لك بيستعمل ازاي.. آسفة.. شوفي حد غيري ممكن يقبل يساعدك!" .

وأمسـكت هاتفها مسـتدعية مسـاعِدتها في المكان بقيمة الكشف، معلنةً انتهاء اللقاء!

❖ ❖ ❖

تركت المكان وأنا على انشطاري ذاته.. إحدانا تتربَّع الرقعة المدوَّرة.. والأخرى تسير على الإسفلت كعودٍ من البوص الجاف يتحكَّم في حركته اتجاه الريح...

"وماذا بعد؟"..

❖ ❖ ❖

في زيارتي نصف الشهرية لبيت أبي يسألون عن الطعام، أشعر أن شـهيتي مفتوحـة لصينية بطاطـس باللحم، هو "وَحَـمُ" الحمل الـذي كانـت أمـي (رحمها اللّه) كثيـرًا ما تحدثنـي عنه، رغم أنني حين حملت من قبل لم أشـعر بشـهية لشـيء محدَّد، وكان حملي منذ اللحظة الأولى مرهقًا بشـكل غير طبيعي! تلك المرة لا شـيء من أعراض الحمل سـوى الرغبة الجارفة في النوم، ربما أظـل نائمة ثلاثـة أرباع اليوم، ومع ذلك أرغـب في المزيد! لكن شهيتي للطعام معتدلة باستثناء الضغط النفسي الذي يقلِّلها بعض الشيء، والقليل من الغثيان!

❖ ❖ ❖

البنت التي كنتها منذ زمن بعيد تغيَّرت ملامح روحها.. صارت أكثـر نضجًـا.. ربما، أو أكثـر واقعية، أو حتى أكثـر تجلُّدًا.. وربما شاخت وتُكابِر ما زالت! لا شيء يبقى على حاله، ولا حتى

أرواحنا ، بل لا سيما أرواحنا! تراودني الرغبة في أن أهرب لبعض الوقت مما أنا فيه فأحبُّك في خيالي، لكنني ما ألبث أن أفيق على وجعٍ بروحي يتصاعد كنفثات دخانك الشره، حين تشعل السيجارةَ من الأخرى!

❖ ❖ ❖

تذكَّرت الطبيب الذي كان يتابع حملي الأول، كنت أعلم تمامًا أنه سيرفض ذلك، لكنني خضت التجربة، وكأنني أتلذَّذ بذلك النقر على أوتار أعصابي حين أسمع لومًا أو تقريعًا أضطر إلى احتماله في صمت، قلت له إنني كنت أتابع حملي الأول معه ثم ها أنا أحمل من جديد على غير رغبة وقمت بمحاولَتي إجهاض فاشلتين، فكان ردُّه دون تفكير: "آسف.. لو هتكملي الحمل أهلاً بيكي.. غير كدة أنا ماباعملش دا!".

❖ ❖ ❖

في الطريق إلى البقَّال المجاور أشتري سجائر "روثمان أزرق".. لصديقي الذي قرَّرت الاستعانة به للتخلص من حملي في أحد مراكز النساء والولادة المعروف عنها أنها تمارس هذا في الخفاء أتذكر حين كنت أشتري لك نفس نوع الدخان!

❖ ❖ ❖

حين فاجأتك بتورتة الشيكولاتة على هيئة قلب في عيد ميلادك ابتسمت ممتنًا.. كنت مرهقة جدًا، طلبت مني أن أذهب إلى الفراش وأحاول النوم، استرخيت ممسكةً موبايلي

أتابع ما تكتبه في الريسبشن على "فيس بوك".. كتبت لك في الإنبوكس "بردانة".. فقلت لي "شوية وهاجي ادفيكي، بس انا زهقان"، "ليه بس؟" "سجايري خلصت". كانت الساعة تخطَّت الواحدة صباحًا قلت لك "أنا جايبة لك سجاير مع التورتة".. "بتتكلِّمي جد؟" "آها".

حين جئت إلى فراشي متسائلاً: "بجد جبتي سجاير؟!" قلت في هدوء "طبعًا".. نهضت من فراشي في قفزة واحدة وأحضرت لك السجائر من المطبخ.. أشعلتَ سيجارةً، وقلت لي: "مفاجأة علبة السجاير دي عندي أحلى من التورتة!".

❖ ❖ ❖

اعتدت كلما طلبت مني علبة سجائر أن أحضر اثنتين، أعطيك واحدة وأخفي الأخرى كمخزون استراتيجي لئلا تشعر للحظة أن شيئًا ينقصك حتى لو كان دخان السيجارة!

❖ ❖ ❖

أضبطني في قمة الأزمة متلبِّسة بالدفاع عنك.. تنظر إليَّ صديقتي في حنق واضح عليك وعليَّ أيضًا: "طب كان وقف معاكي لما الموضوع يخلص". قلت لها: "ظروفه متلخبطة والدنيا عنده خربانة، ماتظلميش حد". شعرت أنها لا تطيق كلماتي تلك، وتودُّ لو أنها تنفجر فيَّ بسيل من الشتائم. هي لا تدرك أنني أتلصَّص عليك من صفحتك على "فيس بوك"، وأقيس حالتك بما عرفته عنك، وأزعم أنه ليس قليلاً، بما تكتب، لدرجة أنني صرت أستشعر من الموضوعات التي تكتب عنها ومدى السخرية

المرَّة التي تقطرها كلماتك، حالتك المزاجية والنفسية!

❖ ❖ ❖

لا أحـد يوقـن بالنهايات، النهايات تتشـكَّل لا على هوانا وإن وافقته، بل هي مسطورة قبلاً!

أيـام حملـي الأول شـعرت أن لديَّ رغبة شـديدة فـي "طعمية" ساخنة، وكنت أنا وزوجي سائران في طريقنا إلى البيت، وعلى مضض نفَّذ لي كمال رغبتي لأنه كان يعلم تمامًا أنها من أكثر الأشـياء إثـارة لقولوني، لم أنسَ أبدًا مذاقهـا.. كانت أكثر من رائعة.. اليوم وأنا أتناول نفس الإفطار لا أشـعر بطعم لأي شـيء، ولا حتـى "الطعميـة"، رغـم أن أحمـد كان يأكل متلـذِّذًا لأنني أعددت له الأقراص المحشوة التي يقولون عنها في الإسكندرية "فلافل" على حق.

نعـم حالاتنا النفسـية تتحكَّم حتى في مراكـز تذوُّقنا داخل المـخ.. أراني في طريـق طويلة تؤدي إلى أكثر مـن نهاية، أقرب الاحتمالات هي خسـارة الجنين وخسـارة آدميتي معه، وخسارتي ذلـك الرجل الذي عشـقت الحياة بين ذراعيـه، فقدت كل قدرة علـى التـذوُّق، أُنسـيت أننـي أنثـى ومظهري لـه أهميـة حتى في إخراس كل الألسنة المتربِّصة، لأكثر من أسبوعين لم أستطع مواجهتـي في المـرآة، أرتدي أقرب زي تصادفـه يدي في دولاب ملابسي الذي يعجُّ بالفوضى ككل شيء في حياتي تلك الأيام!

❖ ❖ ❖

ربمـا الغريب أننـي كنت أتوسَّـل إليك حين أخبرتـك بالأمر ألا

تبتعد عني، كلما تربَّعت في رقعتي المدوَّرة ورحت أتساءل صدمتني الأجوبة، لا لأنني لم أكن أعرف أنها صادمة، بل فقط لأنني قرَّرت أن أصارحني بها، ومع هذا أعلم علم اليقين أنني أدمنك ما زلت، وتلك هي السكين الباردة التي ستذبحني على مدى سنوات!

صديقتي الأقرب حين قلت لها إن الطبيب رفض مساعدتي وأعلنْت عن دهشتي أن هناك بعض الناس ما زال لديهم ضمير، ردَّت عليَّ ردًا مدبَّبًا: "الدنيا مليانة ناس عندها ضمير، المشكلة في اللي بيصر يعرف ناس ماعندهاش ضمير".. لا تحمل المفردات المنقولة عبر "فيس بوك" نبرات صوت أصحابها، لذا نحمِّلها أحيانًا أكثر مما تحتمله حين تضربها يدٌ على الكيبورد!

❖ ❖ ❖

في رقعتي المدوَّرة أراني أرقص على أسنَّة أفكاري، كل بضع ساعات أفتح صفحتك لأطمئن أنك بعد لم تلغِ صداقتنا.. إلى هذا الحد أغرق في تفاصيلك! نعم، كنت حتى يومين أفكِّر كيف لي باحتمال الحياة دونك، لكنني كنت أراهن على بعض الإنسانيات التي أعي تمامًا أنك تملكها بفطرية، لا تتكلَّفها، وحتى اللحظة ألتمس لك الأعذار، ربما أنت ممزَّقٌ مثلي، أو تخشى أن تسألني كي لا تشاركني دوَّاماتي التي لا تنتهي، وربما أقنعتني حين أعاتبك أنك لم تكن تحتمل تفاصيل المشهد!

❖ ❖ ❖

حين سألني أحمد عما يشغلني قلت له كلمة واحدة: "المابعد!". ليس عندي شكٌّ أن ما أنا فيه أزمة وقتية وستنتهي

بشـيء مـن الجهد ، لكن ما لـن ينتهي هو المابعـد ، وآهٍ من تلك الدوائر المتقاطعات جميعًا فيَّ!

❖ ❖ ❖

تبًـا لكلِّ فراقٍ يضيف مزيدًا مـن التجاعيد على ذلك القلب، تبًا لي.. ولك.. ولتلك الظروف التي أصرَّت أن تمتحننا بما لا نطيق. ربما الأسوأ في حياتك أن توضع في مواجهة قيمك ومبادئك التي تتشـدَّق بهـا طوال الوقـت، وبمجرد أن تختبرك الظروف نفسـها تتنصَّـل منها جميعًا كلصٍّ يحاول الهروب من سـرقة احتفظ بها لنفسه وضُبِط بها متلبِّسًا.

هل تشـهد السـاعات القادمـة نهايتي؟! تتزاحم آلاف الأسـئلة برأسـي.. كيف أرى هؤلاء الذين سـبقوني، وكيـف أواجههم؟! هـل أهرب مـن الراحلين مثلمـا أهرب الآن مـن الموجودين؟! هل سـأقضي الوقـت كلـه هروبًـا؟! لكنني لـم أتهيَّأ للمـوت كما يجـب، حيـن ألتقيـه سـأكون فـي كامـل أناقتي، فـلا بد من فرصـة مغايـرة كي أفعل، سـأترك الماء السـاخن حـد التبخُّر يتخلَّل كل مسـامي، ويتراقص مرتعشًـا كسربٍ من النمل ينقل مخزونه الشـتوي في صفوف متلاحقة، على جسدي. كم فتنني الإحسـاس بأنوثتـي بين يديك، حتى صرت أتلـذَّذ برعونتي تحت زخَّـات المـاء. سأسـتخدم ذلك الحجـر الجاف لأحكَّ بـه كعبيَّ اللذيـن قاربـا على التشـقُّق من فـرط إهمالي إياهما، وسـأدهن أطرافي وصدري بذلك الكريم المعطِّر. سأزيل كل شعرةٍ زائدة بجسـدي، وأسـكب من كل أنواع العطور التي يكتظُّ بها درج

الكومود على رقبتي وتحت إبطيَّ وفوق سـرَّتي حتى ترتوي كل مسـامي تمامًـا ، لكنني لن أسـتخدم أية مسـاحيق على وجهي ، لا أفضِّلهـا ، سـأكتفي بنضارة بشـرتي وسـخونتها التي تضفي احمرارًا طبيعيًا على وجنتيَّ.

❖ ❖ ❖

أيتها الرقعة المدوَّرة في سـقف الروح كفاك اتسـاعًا ، فإني أخشى ألا أستطيع متابعتي من خلالك بعد قليل.

أراني وكومة من الاحتمالات ، وأبدًا لا أصل.

ملمـس المفرش القطيفة الذي أحتمي بـه من ذلك الجو الذي لـم أعاصر مثله أبـدًا من قبل له نفس ملمـس ذراعك التي كنت أتوسَّدها حين أنام بعد أن نمارس الحب لساعات متصلة ، لدرجة أن أصابعـي ترتعش حين أمرِّرها عليه بنفس الطريقة التي كنت أمرِّرهـا علـى ذراعـك بهـا. الوسـائد مـا زالـت تحمـل رائحتك ، وتفاصيلـك مـا زالت ترتسـم إلى جـواري على الفـراش ، وروحك تحتلُّ الغرفة ، مسـجِّلةً اعترافك الذي تـردِّده كل مرة وأنت على كنبـة الأنتريه العريضة "مش بانـام بالعمق دا ف أي مكان غير فِ سريرك"!

❖ ❖ ❖

مذاق كل الأشـياء يؤكد أنني مريضـة ، ليس من المفترض أن أصـارح أحـدًا بقصة الحمل عدا من أخبرتهم. أتربَّع في رقعتي المـدوَّرة ، أتابع مـا مرَّ في الليالي الثلاث الماضية بنفس شـريط سـينما داود عبد السـيد ، التـي نبَّهني أحمـد إليهـا ، نعم.. كل

التفاصيل تتتابع على شاشة الذاكرة بشكل تاريخي... وبعض المشاهد محفورة بإزميل نحّات متمكِّن.. منها ذلك الطبيب الذي ذهبنا إليه بمشورة صديقتي التي استنجدتُ بها ، على أمل أن يخلِّصنا من هذا الجنين ، وانتظاري إياه أنا وأحمد لأكثر من ساعتين حول انتصاف الليل في تلك الليلة الثلجية ، وحين أتى دورنا لمجرد أن قلت له إنني أريد أن أتخلَّص من الحمل وضع يده في جيب بنطلونه وأخرج لي قيمة الكشف قائلاً : آسف.. بس لو كنتم مصرِّين ممكن اديكم عنوان حد يساعدكم ، هتسألوني طب ليه ما دمت مش هتساعدنا تدينا عنوان حد؟ هاقول لكم (والتفت نحوي) : عشان ما دمتي حطيتي ف بالك الفكرة هتعمليها هتعمليها فبدل ما تعمليها عند حد وحش اعمليها عند حد كويس.. انتم ولادنا برضه!

❖ ❖ ❖

الموت ليس أسوأ الأشياء.. الأقربون الذين ماتوا لم أكن أتمنَّى لهم مصيرًا أفضل.. من يحيا بالكانسر خير له الموت ، ومن يحيا مشلولاً خير له الموت أيضًا! لن أنسى دعوات أمي لنفسها حين كانت ترفع يديها إلى السماء "يا رب ما تحوج اليمين للشمال ولا الشمال لليمين" ، ولن أنسى دعوة زوجي الذي قضى في أقل من يوم حين كان يردِّدها دومًا "يا رب خدني مرة واحدة ماتشلِّنيش الأول" ، وكأنَّ كليهما كان يشعر ماذا يتهدَّده فكان يستنجد باللّه أن يقيه ما يخشى ، واستجيبت دعواهما.

❖ ❖ ❖

سألتَ عني أخيرًا.. كان اتصالك فاصلاً بين الموت والحياة، لا أجرؤ أن أنكر أنني كنت أنتظره، منذ أيام وأنا أنتظره، ولم أتردَّد للحظة في الرد عليك حين سمعت نغمتك على الهاتف "ماتصدقنيش لو قلت نسيت ليلة واحدة من لياليك"!

الصمت الذي صمتُّه في آخر المكالمة كان عتابًا أخرس، وحروفًا تأبى أن تخرج، كنت أسألك لماذا لا تنهي كل هذا العذاب وتطلب مني أن أحتفظ بجنيني الذي عشقتك فيه؟! ماذا كان هذا ليكلِّفك؟ مجرد موقف، مجرد ورقة ولقاء بأهلي ربما لمرة وحيدة، كنت تملك أن تفعل، وتتركني أحتفظ به، لو ظللت أحكي لك رعشات رحمي احتفاءً وفرحةً بهذا الجنين لأشفقت عليَّ بالتأكيد، وربما لتمنَّيت أن يكتمل هذا الولد! أعرف أن هذا لم يكن ضمن اتفاقنا، أعرف أنك حذَّرتني كثيرًا، لكنني أتخيَّل هذا الطفل الذي ليس مقدورًا له الاكتمال، وأسرح في المابعد، ملامحك تملأ عينيَّ فيه، لماذا تتركني أتعذَّب بالتفاصيل؟ لماذا تصر أن تدعني أكره سلبيتي وأنانيتك؟ لماذا تجعلني أتوارى من نفسي خجلاً طوال العمر كلما تذكرت أنني قتلت ابني بيدي؟ نعم أذكر جيدًا حين قلت لي: "كل المرات اللي اتجوزت فيها ماخترتش" كان هذا هو السبب الوحيد ألا أعيد التجربة لمرة جديدة وأصر أن أضعك أمام الأمر الواقع، لست أنا تلك المرأة، وأبدًا لن أكونها، لكنَّ كلامًا لم تقله، ولن تقوله أبدًا، هو ما كنت أنتظره.. تهتُ بين حروفك في مشاهدي الأخيرة.. حين وصلت أخيرًا إلى الطبيب الذي وافق أن يساعدني طلب مني تحليل دم حتى يطمئن، وحدَّد

لــي موعدًا ينهــي فيه رحلة عذابي مع هذا الحمــل، طالبًا مني أن أهــدأ.. كل مــا أنا فيه منعكــسٌ على ملامحي بشــدة.. وفقدان شهية لكل شيء هو سيد الموقف.

مــا زلــتَ مصرًا أن تســتحلفني بــكل الأشــياء أن أتخلَّص من هذا الجنين.. وكأنك لســت واثقًا أنني ســأفعل، وكأنَّ هاجسًا ما يســاورك بأنني ســأحتفظ به، ثم أقاضيــك لأجله، وهل رأيتَ منــي ما يجعلــك تتخيَّلني هكذا؟! كلما يمر يــومٌ بقدر ما أتعلَّق أكثر بهذا الولد، أبتعد أميالاً عنك، لن تعود علاقتنا أبدًا كما كانت، لا أنكر أبدًا أنك كنت الرجل الأروع في حياتي، لكن مــا حدث قضــى ربما على كل شــيء حتى يقيني بتلــك الروعة.. ليس خطأك أن أحمل، ولكن كل ردود أفعالك ســتظل حاجزًا صخريًــا بيننــا، وربما إلــى الأبد! ربما؟ نعم ربمــا. لا يمكنني أن أقطع بأي شــيء، ليســت عندي القدرة على اتخاذ أية قرارات ولا أســتطيع حتــى لو اتخذت قــرارًا أن أضمن تنفيذه، ومعك أنســى كل ما أعد به نفســي من قرارات، بمجرد أن أسمع صوتك تعود ذلك الصنم الذي أدور حوله من جديد، ما زالت لديك تلك القدرة على أسري، رغم كل ما حدث، نعم رغم كل ما حدث!

❖ ❖ ❖

في طريقي إلى العمل استفزَّني جدًا ذلك الرصيف، تابعت في البداية حين اســتبدلوا ببعض بلاطاته أخرى بلون مختلف، فصار كالثــوب المرقَّع، بعد أســبوع كرَّروا نفس الفعل، بعد أســبوع ثالث أزالوا كل البلاط بما فيه آخر ما وضعوه، والآن نسير على

الرمـل المتبقي مـن الرصيف، لدرجة أن أقدام السـائرين حملت مـن الرمل ما حملت وحفرت مدقًا باتسـاع الطريق إلى الميدان، ترى هل سيكون هذا شكل روحي بعد الإجهاض؟!

❖ ❖ ❖

ساحة ميـدان التحريـر التي كان مجـرد النظـر إليها يبعث البهجـة صـارت مخزنًا للكتل الإسـمنتية حول أكثـر من مبنى يخشون تعرضه للهجوم، إضافةً إلى الأشجار التي تقرَّر إجهاضها مـن كل أوراقهـا وفروعها هكـذا فجأة بحجة أنهـا تفتح الباب لعمليـات خفية قد تحدث في الميدان.. ربَّما نجحوا لبعض الوقت لكـن مـا حـدث أن الأشـجار لـم تستسـلم، وحملـت.. وحملت.. وحملـت.. واليـوم فـي الصبـاح انتبهـت حيـن تابعت تلـك اليمامة القزحية الألوان إلى أن أوراق الأشـجار تنمو بكثافة ربما أسـرع مما قبل...

ميـدان التحرير.. مفتاح من مفاتيح الحياة السـحرية بالنسـبة إليَّ، وما تحمله من دلالات وربما تجاعيد انحفرت بالروح. كانت أولـى خطواتـي إلى هذا المكان منذ اثني عشـر عامًا، وكأنها اثنا عشـر يومًا فقـط، كنت بصحبة ذلك الرجل الذي عشـقني عشـق المجنون لليلاه، وأوقف حياته عليَّ، وحين غادرته قرَّر أن يغادر الحياة، وظل حيًا ميتًا!

بعـد أن نجحت في امتحانات القبول بالإذاعة المصرية وظللت علـى قائمة الانتظار لأكثر من عام، ولأنني لم أجد من يتوسَّـط لـي فقـدت فرصتـي، رغـم جـدارة أثبتُّهـا فـي كل المقابـلات

والاختبارات! كان ضياع هذا الحلم مني بمثابة نُدبة أخرى في الروح لا تُشفَى، لا تقل ضراوة عن ندبة حلم الطب الذي طويلاً ما حلمت به، وتبخَّر في الأسبوع الأول لي بالثانوية العامة، حين فوجئت أن المدرسة ليس بها مدرس فيزياء، ولا أحياء، ومدرس الرياضيات يحتكر القسم العلمي كله في الدروس الخصوصية فيدخل إلى الفصل ليكتب مسألة على السبورة ثم يقول: "نكمل في البيت" ونظراته تخترقني كسهام مسمومة، لأنني وحدي من كنت أتخلف عن دروس الرياضيات لديه، ولم تكن ظروف أسرتي تطيق عبء الدروس الخصوصية، عوَّدنا أبي أن من يستطيع أن يكمل تعليمه بمجهوده الذاتي فهنيئًا له، وإلا فيكفيه ما حصَّل، والطريف أن كلنا حصلنا على مؤهلات عليا بناتٍ وبنين.

شعور بالطمأنينة وقر بقلبي بمجرد أن خطوت الخطوات الأولى إلى الميدان، رأيت في رقعتي المدوَّرة التي كانت حينها ثقبًا صغيرًا بسقف الروح أن هذا المكان سيكون لي وطنًا، وقد كان.

نجحت في الحصول على فرصة عمل بالقطعة في المكان، وحين مرَّ العام الأول كنت قد استطعت أن أقتنص مكاني من بين مخالب صقور مستوطنة كل الشواطئ.

بعد مرور سنوات كُثرٍ شعرت أن عملي الحالي أفضل مما لو كنت نجحت في الالتحاقِ بالإذاعة، وأخيرًا شعرت بالتحقُّق، أشعر بلذَّة كلَّما أنجزت مهمة من مهام العمل، أصل إلى قمة متعتي النفسية، وألتقي صنوفًا من البشر لا يقل تنوُّعهم

وتعدُّد مشـاربهم وتخصُّصاتهم وجنسـياتهم عمـا لو كنت عملت بالإذاعـة، بـل ربما أكثر كثيرًا، هنا فـي ذلك المكان تعلمت كيف أمارس إنسانيتي وكيف أحافظ على هويتي التي تخصُّني وحدي باقتدار.

❖ ❖ ❖

أخيـرًا وجـدت سـببًا لتجريـف الرصيـف.. صبـاح اليـوم فـي طريقـي إلى العمل رأيت عددًا من المواسـير البلاسـتيكية يبلغ قطرها نحو عشـرة سنتيمترات منتشـرة بطول الرصيف وأكوام مـن الرمل الأصفر الناعـم، بالتأكيد هذا سـبب مقنع لتجريف الرصيف بامتداد الأسـوار المحيطة بالميـدان كله، كل الأيام تتشارك في تجريف كل شيء في حياتنا حتى أرواحنا المرهقة!

اليـوم الخميـس رغم أنه يـوم عمل عادي يعتبـره أكثر الزملاء يوم راحة ولا يأتون إلى العمل.. كنا سـتة.. اسـتأذنَت زميلة فصرنا خمسـة.. رجلين وثلاث سيدات.. جمعتنا أحاديث عاملها المشترك هـو الضحـكات المجلجلـة.. ظـل العـدد يتناقـص حتـى انفردتُ بزميلـة أقرب إلـيَّ من كل الآخرين والأخريـات.. هي في الأربعين لكنها تذبل أسـرع مما ينبغي.. سـألتها عن أحوالها فتنهَّدت.. حالة مـن فقدان الرغبة في كل شـيء، وزوج يجبرها على الوصول إلى التبلُّد.. كثيـرًا ما نصحتها بتجديد حياتها، لكن دومًا تلح عليها مفـردة زائفة تدعوهـا "كرامتي". كثيرًا مـا أوضحت لها أن هذا مصطلح زائف؛ فأي كرامة بين اثنين يعتلي كل منهما الآخر في لحظة ما.. بل ويمتطيه بحب واسـتمتاع شديدين! هي مقتنعة تمامًا

برؤيتي لكنها لا تستطيع أبدًا تطبيقها ، وتعلم أنها أبدًا لن تستريح لأنها لا تستطيع أبدًا أن تكون فاعلاً.. للرجل دومًا دور البطولة ، هكذا عاشت وتربَّت وتزوجت، وصارت بناتها أطول منها ، وابنها الوحيد هو الطفل المدلَّل.. لا لشيء سوى لأنه ديك البرابر!

كلما نصحت إحدى زميلاتي تبدَّى لي تناقضي واضحًا بشدة؛ أُحمِّل الأنثى دائمًا عبء انصراف رجلها عنها وبحثه عن الأمان بين ذراعي أخرى.. رغم أنني طوال الوقت أمثل دور الأخرى في مواجهة الأنثى الأصلية! ما زلت أحار في شخصيتي.. هل سينتهي ما أنا فيه بفصام نفسي حقيقي؟

❖ ❖ ❖

حين قلت لصديقتي المقرَّبة إنني لا أحمل أية مشاعر عدائية نحوَكَ وبَّختني قائلة: "دي مش حاجة حلوة ولا ملائكية ، دي مازوخية سيادتك".

هل أتلذذ حقًا بطعم دمائي حين أرتشفها ساخنة مع فطائر الجبن والشيكولاتة بديلاً عن البن أو الشاي الصباحي لكثيرين لأنني لا أهوى طعم أيهما وأكتفي بدمي اللاذع ساخنًا في الصباح؟!

دائمًا كنت أهوى تأليف قصص متشابهة النهايات أمثلها بعرائسي القماشية التي كانت تصنعها لي زوجة أبي وتضع لها خصلات من شعرها الناعم الطويل، كنت بلا سبب واضح حينها أنهي قصصي جميعًا بموت البطلة ، لكنني قط لم أنهِ أيها بموت البطل، كادت بعض السيناريوهات تتطابق مع واقعي

الذي عشته بعد أكثر من خمسة وعشرين عامًا ، باستثناء نقطة وحيدة ، هي موت البطل!

فالواقع الذي عشت فيه نفس السيناريو مرتين كانت نهايته في المرتين موت البطل.

❖ ❖ ❖

ممرات الأدوار بالمطابع تذكرني كثيرًا بممرات مستشفى قصر العيني القديم ، نفس الممرات التي لا تنتهي ، وتلك المباني المستطيلة المطلة على كورنيش النيل ، وخطواتي الثقيلة في المكانين مع اختلاف الأسباب. أيام في مراحل مختلفة من حياتي قضيتها بمستشفى قصر العيني القديم ، لم تكن تجربتي الأولى مع المرض ، لكنها كانت التجربة الأصعب ، حين اضطررت إلى إجراء جراحة حساسة كان من الممكن أن أفقد فيها صوتي ، وتعرَّضت لتوقُّف في التنفس في أثناء إجراء الجراحة لم أكن لأعلم به لولا أن أمي حين كانت تساعدني في تغيير ملابسي فوجئت بأن ثديي الأيسر كتلة زرقاء! حين سألت الطبيب بعدها حكى لي ما حدث ، وبعد تلك المرة رافقت أمي في رحلة مرضها على فترات متقطعة في نفس ذلك المبنى العتيق بتقسيمه المدرسي ، بين قاعات الدروس والأقسام الداخلية ، ومعامل الباثولوجي ، وغرف العمليات ، والاستقبال المفتوح طوال الوقت.

وكذلك لسنوات ظللت أتردد على تلك المطابع في جزء من مهام عملي ، وكلما سرت في ممرات الأدوار تلبَّستني نفس الحالة التي كانت تسيطر عليَّ في قصر العيني القديم!

(٢)

الليلـة حـدٌّ فاصل بين الوجـود والعدم، قـد يخلِّصني الطبيب نهائيًـا من حملي فـي الصباح، وقد تظهر مفاجآت أخرى ليسـت فـي الحسـبان. صبـاح أمـس قمـت بمحاولـة رابعـة للإجهـاض الكيميائي، وككل مرة فشـلت أيضًـا ، المدهش أنني صباح اليـوم وأنا أحـاول أن أتطهَّر بالمـاء الدافئ وجـدت كتلة بيضاء تسقط من فرجي، هي الأقراص التي استخدمتها بعد أن باشت، تجمَّعت كلها ونزلت من فتحة المهبل كأنها قطعة واحدة! رحمي تلك غريبة، لا أفهم ما يحدث، إلا أنه غير طبيعي وغير مسبوق، فليـس لديَّ أي تفسـير منطقي، فكل نتائـج البحث على جوجل تقـول إن الإجهـاض الطبـي تصل نسـبة نجاحه إلـى ٩٨ بالمائة، وهـل كنـت في يوم من الـ٩٨ بالمائة في أي شـيء؟! دائمًا أنا من نسـبة الواحـد في المليون، حتى في حساسـية بشـرتي، ولثتي، وأنسـجتي، كل الأطباء الذين زرتهم على اختلاف تخصصاتهم أقرُّوا بذلك، فلماذا أتعجَّب؟!

❖ ❖ ❖

تـرى يـا صغيري سـتكون تلـك هـي الليلـة الأخيرة لـك بين أحشائي؟! أعترف الآن بأنِّي عشقتك حدَّ الذوبان، حدَّ انصهاري بأبيـك المتفـرِّد فـي كل شـيء حتـى سـلحفائيته النـادرة، حدَّ اشـتهائي البقاء بين ضلعيـه طوال العمر، تتدافـع على ذاكرتي

تلـك اليوميـات التي كنـت أكتبها بعـد لقاءاتنا الأولـى.. بنفس سينما داود عبد السيد التي صارت ترافقني طوال الليالي الأخيرة.

❖ ❖ ❖

السبت:

"ماباحسش إني إنسان طبيعي وان انا أنا غير وانا باكتب، ما عدا تلك الحالة أشعر أنني مصطنع!".

هكذا عبَّر عن نفسه في أول مهاتفة بيننا.. وكأنه يبحث فيَّ عن ذلك المتلقِّي الذي يتشوَّق إلى لقائه..

مدهشٌ ما زلت أنت..

الأحد:

عندما تلتقيان في اللحظة ذاتها..

ممسـكةً بهاتفك.. مقلبةً في المحادثات الأخيرة.. باحثةً عنه.. فتسمعين ذلك الصوت الذي ينبئك بمن يحدثك على "فيس بوك"، فإذا به يكتب لك!!

❖ ❖ ❖

الإثنين:

سأكتب عن ذلك الفتى، طويل القامة واللسان، خفيف الظل رغم أنفه- المتمرِّد حتى على ذاته ذاتها.. بالتأكيد سأكتب عنه يومًا ما!

عن ذلك اليمام المتوسِّد صوته.. أو تلك الوردات البلدية القابعة على شفتيه!

كأنك روح صفحة الفيس بوك.. حين تغيب تغادرها الحياة!!

❖ ❖ ❖

الثلاثاء:

دقـات قلبك تتسـارع في إعـلانٍ عن حالة مراوحـة ليس وقتها تمامًـا.. تـراك تعتـاد تلك النبرات؟ هل تسـتقبل ذلـك الحرير في صوته كحلمٍ بالرفاهية؟

دونك والحلم..

ما لارتباكةٍ مباغتة تحطُّ على شاطئك اليوم؟!

وحيـدًا ترقص على أطراف أصابعك.. فـوق المنضدة البلورية المدوَّرة.. دون موسـيقى صاخبة.. دون رفيقٍ يتسـمَّع وقع أنفاسـك المتلاحقة، أو يقرأ ذلك الوهج الظمآن في عيونك الزيتونية!

كم تعشق الرقص على تعبيرات وجهه المزدحم بالتساؤلات، وخطوات البنفسـج المتأرجح بين عينيه، ومفرداته المتردِّدة رغم كثيرٍ من الثقة يغلِّف نبراته الهادئة!!

الواحدة صباحًا

أفرد لي مساحةً بيضاء.. للحظاتٍ تسمعني فيها وتحتويني..

ظلٌّ لتفاصيل تسكنني..

واعتـرافٌ بأن ذلك الفتى الممشـوق يحـاول أن يخترق الدائرة المغلقة..

ورفضٌ أحيانًا يتبدَّى..

وبطاقات يملؤها الخوف!

كلما خف ضغط العمل بدأت الشياطين مهمتها المقدَّسة..

وحشةٌ تقفز بين عروقِكِ... له وحده...

حزنٌ يتربَّص بكِ..

وتساؤلات تسافر في وريدِك!

خلِّنـي هنـاك.. في تلك المسـاحة الخاصـة جـدًا.. أفردها لي وحـدي، بعيدًا عـن توتُّراتـك الصباحيـة، وذلك البن المترسِّـب فـي قاع الفنجان، وفـي أماكن أخرى، ربما حول أصبعك، على المنضـدة، علـى ياقة قميصك، أو في أعقاب سـجائرك العشـر التي دخنتها في الساعة الأخيرة!

وقال لي:

"المرارة زي نهر صغَيِّر كدة.. ترعة، عارفة الترعة؟

والضحك حجر..

بترميه في الترعة من وقت للتاني

عشان تحركي وش الميَّة العكر!"

❖ ❖ ❖

الأربعاء:

كلما أنظر إلى تلك الأيقونة المطفأة أشعر كم تذبل روحي... وحـدك من تشـعل بداخلي أملاً جديـدًا يعينني على اسـتكمال الرحلة!

الخميس:

أنا لست قطعة من الجبن ستأكلها ثم تنفض يدك..

الجمعة:

أتحسَّسُ رأسي لأتأكد أنها ما زالت مكانها.. عيناي تخدعانني.. وكأنهما انتقلتا من وجهي.. أرى نصف الحروف، ولا أستطيع تبيُّن النصف الآخر.. عدم النوم يفعل كل هذا!!

أتركني ممدَّدةً في فراشي.. وأقرِّر أن أتابعني من تلك الرقعة المدورة في سقف روحي..

هو.. يقفز من نفس الفتحة التي قرَّرت التربُّص من خلالها، لكن يبدو أنه قد عقد اتفاقًا مسبقًا كي تسمح له ذاتي بالمرور إلى الداخل لأنه لم يتعرَّض لأي نوع من التساؤلات، هل يعني هذا أن معه إشارة مرور؟!

❖ ❖ ❖

نعم فكرت في الانتحار أكثر من مرة.. بعض المرات تعدَّت مجرد الفكرة إلى تناول بعض الحبوب المهدئة بكمية كبيرة، ولكن فشلت المحاولة، وعرفت حينها أنني أحب الحياة أكثر من رغبتي في المغامرة بها، فتراجعت، باستثناء ذلك لم أقدم على أي تصرف مشابه، وإنما كان هناك تصرف مضاد.. بمعنى أنني قررت أن أمتنع عن ذلك الدواء الصباحي الذي أحيا به.. ربما يكون امتناعي عنه سببًا طبيعيًا للموت البطيء، ولكنني ظللت أذبل ولا أموت.. وحين ذهبت إلى الطبيبة قالت لي: امتناعك عن الدواء سيجعلك حية ميتة.. أنتِ حرة..

شعرت حينها أنني مراهقة.. وقرَّرت أن ألتزم بدوائي الصباحي إلى آخر يوم في عمري، ولو نسيته لأي سبب تناولت جرعة

إضافية مع جرعة اليوم التالي!

في أحد لقاءاتي بك.. كنا نتناول الجمبري المشوي.. وكنت حديثة عهد بأكله.. حين قلت لي: أنا اتعلمت ازاي استمتع بكل حاجة باعملها.. حتى طعم الأكل.. مزمزي.. اتلذِّذي بطعم الجمبري!!

حتى تلك اللحظة وأنا أتذكر تلك الكلمات كلما أكلت الجمبري المشوي.. كنت محقًا..

اتخذته منهج حياة.. لو لم أشعر بالاستمتاع في ما أفعل، أبدًا لا أفعله.. نحن نحيا لنستمتع.. في لحظة ما دون أية علامات أو نذر مسبقة نموت.. فلماذا لا نفرغ كل طاقات الاستمتاع بداخلنا في اللحظة المعيشة؟

هل يضمن أيٌّ منا أن ذلك الشهيق سيعقبه زفير أو العكس؟؟

لا أحد يضمن شيئًا.. الحياة بلا أدنى ضمانات.. ولو أمعن أينا تفكيره في سبب واحد ليجعله يحيا بالتأكيد سيجد مئات الأسباب، وربما لا يجد بعضنا سببًا واحدًا يحيا من أجله.. حسب نظرة كل منا إلى الكون من حوله..

أنا شخصيًا أملك من الأسباب ما لا حصر له يجعلني أستمسك بالدنيا وبحياتي إياها.. على الأقل عليَّ أن أمارس استمتاعي بـ"طعم الحاجات"!

❖ ❖ ❖

تلك المنطقة الواقعة بين سقف الروح وقارعة الإسفلت مزيج من الأحاسيس المختلطة وزجاجات عطر فارغة تأبى أن تتخلَّص

من روائحها العتيقة.. وظلٌّ لرجل ضخم.. ينهر صوت سعاله الفضاء المتسع مفزعًا إياه.. كعفريت مراوغ!

المفردات تتكرَّر حتى تفقد معناها الواحد.. وتتعدَّد دلالاتها ربما بعدد من تمر عليهم، فينحت كلٌّ دلالة خاصة جدًا.. بمن فيهم أولئك الذين رحلوا إلى غير رجعة.. ورحلت معهم دلالاتهم الخاصة!

دواة الحبر العتيقة التي توهَّمتَ أنها جفَّت تمامًا.. نقطتان من دمك الطازج يعيدان إليها الحيوية.. وكثيرًا من الرعونة!

❖ ❖ ❖

كنت تقريبًا أحيا معه، بل وأدمنه دون أن أشعر، صارت كل يومياتي تدور حوله، لكن ملاحظة وحيدة ظلت تتردَّد في خيالي ربما حتى تلك اللحظة، أنني شخصية مندفعة ومتسرعة، وكثيرًا ما أعترف اعترافًا مجانيًا بالحب، إلا تلك المرة! لم أعترف أبدًا ولا لنفسي أنني أحبه، ودائمًا أصنِّف علاقتنا أنها لا تخضع لأي شيء سوى كيمياء الجسد، لكن الواقع يكذِّب ذلك في كثير من المواقف! فحين كنا معًا في المرة الأخيرة كان يصف لي مشاعره، وكيف أنه لم يرَ ما رآه معي أبدًا في حياته، كان يراني أدلِّله وأهتم به كما لم تفعل أنثى من قبل، رغم زيجاته الأربع التي استغرقت نحو عشر سنوات من عمره، ومع هذا لم نتطرَّق أبدًا في حواراتنا إلى أننا يمكن أن نتزوج، كل ما كان يشغلنا أن نظل معًا، وأن نغترف من اللذَّة بكل ما أوتينا من عنف وقوَّة وجنون وجبروت، وكأننا نعلم علم اليقين

أننا سنفترق يومًا ما!

❖ ❖ ❖

الليالي تمر باهتة مترقِّبة.. بمزيج من الخوف والرهبة واحتمالات أشفق على نفسي من ذكرها ، فلو انتهى ذلك الأمر سيختلف كل شيء في حياتي، لكنني بالفعل أخشى "المابعد"، أخشى أن أكون فقدت استمتاعي بـ"طعم الحاجات" إلى الأبد. أخشى أن تتركني تلك التجربة كتلك القطعة من ملابسي الداخلية التي تتهرَّأ بعد ارتدائها لمرةٍ وحيدة، مهما غلا ثمنها ، مؤخَّرًا اقتنعت أن إفرازاتي شديدة القلوية، وهذا ما يجعل أي نسيج لا يتحمَّل امتصاصها فيتهرَّأ لفوره!

❖ ❖ ❖

(٣)

بين الوعي والغياب أمسك بتلك الآلة ذات الملاقيط المركَّبة وأنزع الشعر النابت بين فخذيَّ كأنني أتزيَّن لعرسي، لا شعرة واحدة تصمد أمام حدة التروس، فصارت تلك المساحة فائقة النعومة، كخد وليد! لا أنسى أنك كنت تطلب مني دومًا ألا أنزع تلك الكتلة من الشعر في هذا المكان تحديدًا لأنها تثيرك أكثر، وكنت أحتفظ بها دومًا لأجلك، والآن ما عاد لي حاجة بأن أتركها، فقد حكمت على نفسي بالخروج من جنَّتك إلى الأبد، رغم يقيني أنني لن أستمتع ما حييت مثلما فعلت معك، ولن تتوافق كيمياء جسدي أبدًا مع آخر مثلما توافقت مع جسدك!

ربما أنا مجبرة تمامًا على البعد عنك، لأنني لن أحتمل أن أظل أتعذَّب بالتفاصيل كلما لمسْتَني، لماذا أجبر نفسي أن أتذكَّر تلك الرعشة التي كانت تدغدغ بطني لحركة جنيني منك بين أحشائي كلما انتفضتُ وأنت ترافقني رحلة النشوة؟! سيشوِّش عليَّ هذا ألف نشوة، وألف سُكْرٍ بجسدك، وألف رغبة أرغبها فيك مهما علت، قلت لك.. ما حدث سورٌ عالٍ انبنى بيننا، لا برغبتك، ولا برغبتي، لكن هذا ما حدث، وإن اشتقتك أيَّما شوق، وإن أرَّقتني الرغبة فيك أيَّ أرق، وإن عاودني الجموح بين ضلعيك، وإن ظمئت ما ظمئت لكل خلاياك!

❖ ❖ ❖

الليـل طويل، يرفض مـا زال أن تتحرَّك ناصيته، وأنا أنقسـم إلى عددٍ من التشوُّهات كلٌّ يحمل نُدبته ويمضي، ربما لعشرات الأعوام هي نفس التشـوُّهات، ومع نفس الشخوص القدامى، بل القدامـى جـدًا! شـريط الذكريات يرفض أن يتوقف سـوى عند لقطـات محـدَّدة تخصُّـك وحـدك: لقاءنا الـذي حملـت فيه ذلك الجنيـن، ومشـاعري حينهـا، ونظراتـك التـي كانـت تحتويني كلي، وتنويعات المتعة التي كانت في أعلى درجاتها، وانسجام جسـدينا فـي رقصة تانجو مـن إبداعنـا الخاص جـدًا، تأوُّهاتي وتغنُّجاتـي وأنـا أصل إلى أعلـى حالاتي، وأصابعـك التي كانت تعزفنـي كلحـنٍ أسـطوري، وكل سـنتيمتر في ملامحـك يعبِّر عـن الذوبان بطريقتـه الخاصـة، وعيناك تلتهمـان كل تفصيلة بجسـدي، وفجأة يقفز إلى ذهني ذلك المشهد الذي ظل يعاودني منذ شـعرت بحملـي، وذلك الفتـى الطويل الممشـوق ذو العينين العميقتيـن وأصابعه الطويلة تحتضن وجهي، وأنا أراك فيه طوال الوقت!

❖ ❖ ❖

لا أدري كيـف مـرَّت الليلـة، لا نـوم ولا يقظـة، ولا انفعالات محـددة، المهم أنها مرت أخيرًا، صليت كثيرًا وكأنني أعرف أن وقتًا طويلاً سـيمر دون صلاة، وأنني سأشـتاق إليها مراتٍ في تلك الفترة، وأنا أركع وأسـجد أشعر برعشة شديدة في بطني، وكأن جنيني يتشبَّث بي وربَّما يستحلفني أن أدعه ليحيا، لكنني لا أجيـب، كأنما تحوَّلتُ إلى جـدار مصمت ترتدُّ الرجاءات بعد اصطدامها به إلى الفراغ!

أعتلي رقعتي المدورة وأغيب.. في تلك المرة التي هدَّدْتني فيها بعد ثاني لقاء بيننا.. "إياكي تحملي". فكان ردي: "وارد جدًا باللي بيجرا بينا دا. ابتعدنا لأكثر من شهرين، وكنت حينها أقنع نفسي أن غيابك غير مؤثر بالدرجة التي سأعاف فيها الحياة حزنًا لفراقك.. دون أن أشعر وجدتني أبحث عنك.. وصلت إليك دون مشقَّة.. وسألتَني عن غيابي.. قلتها بنفس اليقين "وحشتيييني" واستقبلتُها بنفس اللذة.. في لقائنا التالي بعد ستة أشهر عرفت أنك انفصلت عن زوجتك الأخيرة.. كنا أكثر تحرُّرًا.. وكان لنا الوقت تلك المرة.. انعزلنا عن العالم لخمسة أيام.. على أمل أن نطفئ الوحشة. كنتَ رائعًا، وكنتُ متألقةً بين يديك طوال الوقت!

❖ ❖ ❖

الليل طويلاً ما زال ولا أمل في انقضائه، وأنا أراقب عقرب الثواني في ساعتي المستديرة، وأسافر ربما لعقدين من الزمان حيث يكبر ابني منك ويصير رجلاً مسؤولاً. نعم ما زلت أرفض الاقتناع بأن ذلك الطبيب سيخلصني من جنيني إلى الأبد!

دوامات تتقاطع فيَّ، وساعات تنقضي ببطء السلاحف، مثل إيقاعك الذي اعتدته، وربما لبعض الوقت عشقته!

❖ ❖ ❖

(٤)

دقت الساعة الثامنة، ارتديت ملابسي وأيقظت أحمد، تحركنا بعد الثامنة بربع ساعة، وصلنا بعد التاسعة بخمس دقائق، كانت هناك أكثر من حالة وصلت قبلنا، وانتظرنا حتى أجرى الطبيب عملية أخرى مشابهة، ثم استدعاني، فحص بطني بالسونار، وطلب مني أن أدخل إلى غرفة الجراحة، سألني طبيب التخدير عن بعض الأشياء المتعلقة بتاريخي المرضي وعن جراحاتي السابقة وطريقة ولادتي وعدد أبنائي، ثم وضع "الكانيولا" في يدي، وبعد لحظات أعطاني حقنة المخدر فغبت لا أدري للحظات أم لدقائق أم لعمرٍ آخر، وأفقت دون شعور بألم، ولا حتى دوار، قال لي الطبيب: حمد اللّه ع السلامة. ردَّدت: اللّه يسلمك، شكرًا لحضرتك. لم أشعر بالحزن لأنني دفعت ألف جنيه لأتخلَّص من آثارك بداخلي، وكنت مستعدة أن أدفع أكثر، رغم أنني مقهورة، وأسجِّل اعترافي أنني لا فقط مقهورة، بل ومجبرة، وأنني لو خيِّرت لما فرَّطت أبدًا في ولدي الذي كنت أعشقه، ولا أنسى تعليق صديقتي التي سخرت مني حين قلت لها إننا لو كنا في بلد به حريات لما تخلَّصت أبدًا من جنيني: "ما الحريات مهمَّة اهي!".

❖ ❖ ❖

طلبت من أحمد أن يستوقف تاكسيًا يقلُّنا إلى البيت، كنت

أشعر أنني أريد أن أختبئ، لكنني في الحقيقة كنت أغفل أنني أريد الاختباء من ذاتي، وليس البيت بالمكان الأمثل الذي يخبِّئني منها بالتأكيد.

لحظة نزولي من التاكسي اصطدمت بنظرات حادة من ذلك الفتى ابن البواب المختال بقوامه الممشوق وطوله الفارع.. يشبهك.. فانتفضت للحظات..

بمجرد دخولي إلى منزلي حاولت أن أغوصَ في فراشي، حاولت كثيرًا، لكن حالة أقوى مني كانت تشتِّت نومي، حالة من الجوع الشديد، وكأنني لم آكل نهائيًا منذ أيام، أنا بالفعل كنت أهمل طعامي، ولكن ما ينتابني الآن غولٌ من الجوع، لا أعرف كيف أتعامل معه، تحاملت على نفسي وقمت من فراشي، بحثت عما يمكن عمله، وجدت بعض الأشياء قد تصلح طعامًا لامرأة نزفت كثيرًا، أعددت الطعام، وجلست آكل بنهم حتى شعرت بالامتلاء، بالتأكيد أسرع مما كنت أظن، لكن المهم أن هذا حدث! كنت أظن ألا شيء سيكفيني وأنني بحاجة إلى مزيد من الطعام، لكنني كنت واهمة فقط.

لاحظت وأنا أتناول الطعام أن آلام اللثة تتفاقم وما زلت أتجاهلها بإهمال شديد.. كم أخشى أن أعاود زيارة طبيب الأسنان، فذلك الطبيب الذي أحببته لخمس سنوات ثم مات فجأة وقف سدًا منيعًا بيني وبين استكمال علاجي لأنني لم أتخيَّل نفسي وسواه يضع أدواته في فمي!

❖ ❖ ❖

الليالـي العشـرون التي كانت عمـر علاقتي بجنينـي بعد أن شـعرت بوجوده غيَّرتـي كثيرًا، وبخاصةٍ أننـي كنت أوقن أنه ولـد، لـم يكن مجرد إحسـاس، بـل كان ذلك يقينًا يتلبَّسـني. بالتأكيـد اختـلاف الجنس حيـن حيـن يكون لديك أكثـر من طفل يرضـي رغبـة كل أم، كنت شـغوفةً بذلك الإحسـاس الرجعي تمامًـا وسـعيدةً به، أن يكون لـي ولدٌ يحميني وابنتـي حين أبلغ مرحلـة الضعـف المحتومـة، يحمـل عنـي بعـض ما يثقلنـي، بل ويذكِّرنـي دومًـا بأبيه، ما أجمل أن ننعجن فـي كائنٍ ثالثٍ قد يزيد نصيبك فيه فيشبهك أكثر فيزداد عشقي إياه؛ حتى اللحظة لا أسـتطيع التخلُّص من سطوة مشـاعري نحوك، وهذا يكبِّلني بقيدٍ حديدي لا أسـتطيع منه فكاكًا، وأنت على سـلحفائيتك المعهودة.

❖ ❖ ❖

أتربَّـع فـي رقعتي المـدوَّرة، أراقبني بعد مرور أربع وعشـرين ساعة على إجراء الجراحة، وأتساءل: ترى هل هكذا انتهى كل شـيء فعلاً؟! لماذا أشـعر أن بطني ما زالت ترتعش بنفس العشق لهـذا الكائن، وكأنه لم يفارقها بعد؟! لماذا تملؤني الرغبة في أن أصـرخ: أنا أعشـق هذا الطفل، وسـأتركه ليحيا ويتشـكَّل إنسانًا له نفس الأصابع الطويلة ونفس العينين العميقتين، ونفس السـلحفائية المحبَّبة. سـأتركه ليرافقني الرحلة بدلاً منك، نعم لن يعاشرني كامرأته، لكنه سيحتويني أمًا. كنت أجادل حين تقول إحدى السـيدات إن أمومتها أقوى من أي مشـاعر أخرى قد تحياهـا، ودائمًا كنـت أرى أن الأروع فـي الحيـاة هو إحسـاس

الذوبان في رجل، لكنني الآن أحسُّ إحساسًا مغايرًا تمامًا، هو ذا.. ذلك الطفل الذي لم أنجبه كان قادرًا على منحي الاكتفاء النفسي، والأمان الحقيقي في هذا العالم، لكنك رفضت لي حتى أن أحيا هذا الأمان!

هل يمكنني الآن أن أتهمك بالقسوة؟ القسوة على من؟! عليَّ أم على ولدي؟! أم علينا جميعًا بما فينا أنت نفسك؟! لم تتحرَّك بداخلك أية مشاعر حنين إلى هذا الطفل؟! أنت حتى لم تفكر في الاتصال بي منذ تلك الجملة الباردة التي كتبتها لي على فيس بوك مساء أمس بعد أن قرأت حالتي فور عودتي "وانتهى كل شيء.. وآدميتك أيضًا مع كل شيء!" سألتني في هدوء السلاحف: "هو إيه اللي حصل النهاردة؟"، فأجبتك أنني أجريت الجراحة، فكان ردُّك الزجاجي "حمد اللّٰه على سلامتك"، واختفيت بعدها، حتى لم تهاتفني لتطمئن على صحتي، لم تكتب لي شيئًا يجعلني أحاول الاستمساك بالهدوء بعد هذا الشعور المزعج بالفقد، وكأنني في عالم آخر منفصل عن عالمك!

❖ ❖ ❖

بعد أسبوع كان موعدي مع الطبيب ليطمئنني بعد الجراحة، فحص بطني بالسونار، ثم علَّق: "الرحم زي الفل، بمجرد ما تجيلك الدورة تستخدمي وسيلة". شكرته وغادرت، لكنَّ شعورًا بالحزن يرافقني. لم أكن لأتخلَّص بتلك البساطة من حبِّي لجنيني الذي أصرُّ أنني أُجبِرت على التخلُّص منه.

يرافقنـي تسـاؤل لا أظن أنني سـأجد له إجابةً أبـدًا : هل تبتُ منـك الآن؟! هـل أقلـع عنـك إلى الأبـد؟! هل أزعم أنني سـأهجر حضنـك نهائيًا؟! بل إنني صرت أكثر ضعفًا نحوك.. أبحث عنك كصائم ينتظر مدفع الإفطار في قيظ أغسطس!

❖ ❖ ❖

الأمطـار غزيـرة منـذ الصبـاح.. زادتنـي إصرارًا أن أنهـض وأذهـب إلى عملي.. ما زالـت فرحة الأطفال ترافقني تحت المطر وأشـعر أن قلبـي يتراقص مـع إيقاعاته غيـر المنتظمة على كل الأشـياء.. دفءٌ لافـت يعم الدنيـا في أعقاب المطـر، وإن لم يعد لفرحتـي طزاجـة براءتها الأولـى. كانت ليلتي مزيجًـا من الوهم والمسـتحيل.. كنت أحلم لو أنك تبحـث عني وتقرِّر أن تبقى إلى الأبد، لكن رعشة بطني التي ما زالت تعاودني يومًا بعد يوم، أو على الأكثر كل يومين تنزع كل بذور اشتياق تنبت لك بداخلي أولاً بأول، لكنني اليوم كتمتها وانطلقت.. رحت أستعيد نسخةً من مشـاعري حين تبـدأ بمداعبتي.. تكون فاتنًـا حين تريدني.. ودومًـا كنـت تريدنـي.. وكنت أشـتهيك طـوال الوقـت. كانت كيمياء الروح توافق كيمياء الجسـد. ولأننا صرنا نلتقي أكثر اكتمـل توافقنا الكلي.. كانت نظرة منـك إلى صدري كفيلة بإشعالي.. وضمة أولى كفيلة بإشعالك.

❖ ❖ ❖

(٥)

"الكتابة انفتاح جرح ما"

قالها كافكا ومضى، وترك لي جرحًا عميقًا صفّى دمي وحدي.

وحيدٌ أنا. الحياة على هامش حياتي، والناس هم آخر ما يشغلني.

ولدت لأبوين ككل إنسان، وليس لي إخوة ذكور، ولي حفنة أخوات، ورغم هذا فررت من أسرتي بعد حصولي على الثانوية العامة مباشرةً. درست بجامعة القاهرة وقررت أن أذوب في المدينة الكبيرة مثلما ابتلَعتْ ملايين قبلي، وستفعل في ملايين بعدي.

أوردتني القاهرة كل مورد. عشت حيوات متعددة، تحملت مسؤولية نفسي منذ تلك اللحظة التي قررت فيها العيش هنا.

لم ينتبني الخوف ككثيرين ابتلعتهم دوامات المدينة الكبيرة وأصابتهم لعنتها، أو أعادتهم إلى مواطنهم الأولى خائبين، بل صمدت واستمتعت، وما زلت أستمتع بأقصى ما أوتيت من حواس في مدينة المتاهات. تزوّجت في نحو عشر سنوات أربع نساء، كلهن فرضتهنَّ عليَّ الظروف أو هنَّ من تقرَّبن إليَّ، لكنني لم أسعَ إلى أيٍّ منهن، وعشت وحدي لسنوات متفرِّقة، ولم يكن الزواج هدفًا لي على الإطلاق، لذا قرَّرت أن

أكتفي بحصيلة تجاربي الفاشلة، وأقضي حياتي كالعصافير، كلما استهواني غصن أرتاح في دفئه لبعض الوقت دون التزامات أو قيود من جديد.

لست شبقًا، ولا تستعبدني شهواتي، لكنني حين أداعب أنثى أملك مفاتيحها بين أصابعي، وأحسن قراءة ردود أفعالها بخبرتي. أكثر ما سمعت من كل النساء اللائي لمستهن تقريبًا "انت حنيِّن أوي"، وأكثر ما يمتعني نظرات الرضا في عيني الأنثى/ القريبة حين أتحسَّس جلدها وحين تذوب بين أصابعي، لكنني قد أقضي شهرًا وعامًا وعامين لا ألمس امرأة، بل ولا أشتهيها!

❖ ❖ ❖

أراني على استعداد تام للشخبطة بالكيبورد عشر ساعات يوميًا، وفي ذات الوقت عدم التحدث ربع ساعة مع مخلوق، أنا أكره الثرثرة، والكتابة هي فرار من سخافات الثرثارين. أهرتل كثيرًا على فيس بوك، لو لم أجد من أسخر منه سخرت من نفسي، وكثيرًا ما أفعل..

أنا إنسان بسيط، إحساسي بالوقت معدوم، ولا أرتدي ساعة.

ليست عندي أحلام أو طموحات جنسية فوق حدود الممكن، مستعد لأن أضحي بكل شيء لتبقى الحكومة سعيدة ومبسوطة، وكل ما أطلبه من السيد الرئيس أن يسمح لي بكيلوجرامين من اللحم كل أسبوعين.

أجمل شيء في حياتي هو التدخين، لو توافرت لي سجائر

تكفيني لشهر ربما لا أشعر بحاجتي إلى الخروج، ولا حتى من أجل الطعام والشراب، التدخين أولاً، وبعده يأتي أي شيء. وأضحك كثيرًا حين أسخر حتى من نفسي على صفحتي، ربما لم يسلم صديق من فريندزليستي من سخريتي، ولا من حذفي إياه يومًا ما، حين يطلبون إضافتي من جديد أقبل إضافتهم، لا أبخل على أحد بصداقتي، لكن منهم من لا يحتمل أسلوبي وربما جرأتي في استخدام بعض الألفاظ فينسحبون في هدوء، فتكون هذه فرصة لي لأستلمهم على الصفحة بين السب والسخرية والتقريظ.

أنا ككل آخر في تلك الدنيا أحيانًا أشعر بالخفَّة، وفي بعض الأوقات أكره نفسي، وأحيانًا يهاجمني الإحساس بالذنب لأسابيع!

وكثيرًا ما تداهمني الاستاتيوسات وأنا في الحمام، فأخرج بعدها لأرص تسع أو عشر حالات متتابعة، ولا أهتم إن كان هناك من يتابعني، لا فارق عندي، نشوتي في أن أكتب ولا يهم إن كان هناك من يقرأ ما أكتبه أو لا.

إيقاعي البطيء يجنِّبني الدخول في تفاصيل صراعات محتملة كثيرة، ويجعل النساء والفتيات يفترن من ناحيتي ويمللنني قبل أن أفكر أن أتحرك باتجاه أيهنَّ. الأنثى ترغب بمحاصرتها من الرجل، ولست أنا بالتأكيد ذلك النموذج الذي يروقهن! وأتعجب من هؤلاء الرجال الذين يكرِّسون كل أوقاتهم للهاث وراء امرأة يريدونها.

❖ ❖ ❖

لـم أعتد أن أضيف إلى صفحتي أصدقـاء جدًا إلا في القليل النادر، تابعـت صفحتها لفترة، وكـانت من القلائل الذين طلبت أنـا إضافتهـم. كان زوجهـا الراحـل صديقـي على "فيـس بوك" فقـط، وكنا علـى وعد بلقـاء في الواقـع، لكـنَّ الموت كان أسرع إلى لقائه مني.

كنـت أرى في صفحتها شـيئًا يشـدني، أشـعر أننـي أعرفها قبلاً، أو أن ثمة لقاءً ما بيني وبينها، حتى لو لم يحدث في الواقع. جمعتنـا محادثـات كثيرة ربما لما يقرب من شـهر، كنا نتبادل آراءنـا في واقع البلد، وتلك الحالة التي وصلنا إليها. هي بما أنها تعمـل في القطـاع الحكومي تلمـس عدم جـدوى أي تظاهر في قطاعات الحكومة ما دامت المؤسسات تحتفظ بكل هياكلها كاملـة، فيما عدا تغييـر قيادة أو اثنتين من بعض المؤسسـات. كنت صريحًا معها منذ البداية، معلنًا رأيي في الثورة: "إما البناء والتنميـة حتـى لو ببطء، أو الثـورة، الثـورة دي متأكلش عيش" فـكان ردها مباشـرًا وسـريعًا: "ولا طوب حتى، بـس التنمية في ظـل ميـن؟ في ظـل الإخـوان؟" فأضفت: "ليـه لأ؟ ما هـم عايزين ينجحوا". لم أكن أعرف أنها متحفِّزة ضدهم بهذا الشـكل حين قالـت: "بس أغبيا، مش بيعرفوا حتى يتعاملوا مع المواقف". قلت لهـا: "ومالـه. تمن الديمقراطية، مش الشـعب عايـز ديمقراطية؟ نص الشعب جابهم". قالت: "برضه؟".

: آه

"ما هي دي العقدة، نصه جابهم ونصه رفضهم".

: ده واقع الحال. على فكـرة؛ أنا إنسان واقعي تمامًا، وباكره

الإخوان، لكنى باشوف الأمور من زاوية الواقع بقدر الإمكان.

" كويس وبعدين؟".

: همَّا جم بالديمقراطية، يمشوا بيها. يعني أنا موافق على شيء؛ حطي مليون في التحرير يعتصموا شهر ويجبروا مرسي على انتخابات رياسة مبكرة سلميًا.

"بس كل التجارب أثبتت إنه مافيش سلم".

: تفتكري المليون دول وقتها همَّا إرادة الشعب؟

"برضه لأ".

: خلاص. يبقى كل واحد يتحمل نتايج فعله.

"بس كدة عمرها ما هتتحل".

: واللّه على نفسها جنت "مراكش"![1]

"هنشوف.. على نفسها بس ولا على كل البلد؟"

: فيه أمصار متعددة في مصر، وصدقيني فيه قطاع من المصريين عايز الأمور تستقر وتعطي مرسى فرصة وتحاسبه بعد ٤ سنين، رجل الشارع العادي بيقول دا. هم المصريين يضمنوا منين لو حكمهم حمدين مش هيبقى أسوأ من مرسي؟ أو لو البرادعي؟ طيبين أوي المصريين دول؛ ميعرفوش إن المصري بيتولد ديكتاتور.

"فعلاً. ويا ريته نافع".

❖ ❖ ❖

(١) سخرية على غرار المثل «على نفسها جنت براقش».

أشعر بشيء مختلف حين أكتب لها أو أقرأ كلماتها، تلمسني حروفها، شيء ما يشدني أن ألتقيها، ليست كباقي النساء اللائي عرفتهن، كنت أشعر بجاذبية نحو نساء يكبرنني كثيرًا، وكانت زوجتي الأولى أكبر مني بنحو عشر سنوات، لا أستمتع بحضوري مع نساء يصغرنني أو في مثل سني.. بيننا شهور قلائل، ولكنني أستشعرها دومًا أنضج من عمرها ومني، تحفر في كل لقاء شفهي بيننا مساحةً أعمق.. لا أجرؤ على تصنيفها تصنيفًا محددًا، لكنها تتسرَّب من بين مفاتيح الكيبورد. رحت أبحث عن صورها على صفحتها، بحثت كثيرًا، فلم أجد سوى صورة وحيدة تحتضن طفلتها بعباءة منزل صيفية تظهر كل مفاتنها. لها قوام أنثى بحق. تلك الأنثى التي أطمح أن أعتصرها بين ذراعيَّ، وكأن كل شيء فيها كما ينبغي.. ومثلما تمنَّيته في امرأة.

طلبت رقم هاتفها فلم تمانع، شعرت بالرضا لأنها منحتني فرصتي للاقتراب منها أكثر.

❖ ❖ ❖

حدَّثتها بعد أن أخذت منها الرقم بثلاثة أيام، كنت أخشى أن أطرق باب هاتفها، وظللت متردِّدًا، وكان تخوُّفي في محلِّه، فلصوتها طعم حدائق المانجو على أطراف بلدتي، كنت أعشق المشي بالساعات وسط تلك الحدائق حين كنت أهرب من انتظاري لنتيجة الثانوية العامة بالمنزل، أعادني صوت تلك الزهرة البرية إلى دفء شجر المانجو في أغسطس. أنا قليل

الكلام في العادة، حين أتاني صوتها على الهاتف كنت أشعر أنني أريد أن أصمت لعامٍ أستمتع فيه بصوتها وكفى!

رغم أنني بعد مكالمات قليلة صرت أنساب معها في الحكي كأنني ثرثار.. كنت أتعجب لنفسي؛ شخصية أخرى أتعرَّف عليها فيَّ وأنا بحضرتها. ربما عرفت كثيرات عبر فيس بوك وحدَّثتهن على الهاتف، لأكثر من عام ولا نلتقي.. بداخلي رغبة في أن ألتقيها، وهي سريعة الخطوات، استطاعت أن تهزم إيقاعي البطيء.. كنت أخطو نحوها خطوة فتقطع نحوي عشر خطوات. استطاعت أن تشدني بعيدًا عن كل عاداتي. صمتي، بطئي، تحفُّظي الشديد. التقينا قبل أن يمر شهر على إضافتي إياها، وهذا إنجاز غير مسبوق في علاقاتي.

❖ ❖ ❖

التقينا مساء أحد الأيام من شهر فبراير. كان مساءً لم نخطِّط له، قالت لي إن ابنتها تقضي يومين لدى بعض أقاربها، صارحتني أنها ترغب في رؤيتي، وجدتني مرحِّبًا بالفكرة، فطلبت منها أن تأتي إلى مكان قريب من عملي لأنني لا أستطيع أن أبتعد كثيرًا عنه لأنني من أديره وأعمل به وحدي. التقينا حوالي الثامنة مساء، قضينا ساعتين نتجول في شوارع المنطقة المحيطة بعملي، ثم جلسنا أمام محطة مترو الأنفاق، وحين كنا نتأهب للافتراق فوجئت بنفسي أطلب منها أن أذهب معها.. سألتها: "عندك عشا في البيت؟" فردت بتلقائية: "طبعًا"..

أمسكت يدها وأخذنا المترو إلى حيث تقيم..

كان لقاءً مفردًا في حياتي.. لم أستمتع مع أنثى مثلما استمتعت معها وبها.. درجة التوافق بيننا لم أعشها من قبل قط!

❖ ❖ ❖

استطاعت أن تسرقني لثلاثة أيام بعيدًا عن هذا العالم.. بعيدًا حتى عن زوجتي التي فوجئت حين عودتي أنها قد حرَّرت محضرًا في قسم الشرطة بتغيُّبي عن المنزل!!

❖ ❖ ❖

بعد أسبوعين كان لقاؤنا الثاني، وكنت أشعر أن كل المتعة التي يمكن أن يحصل عليها إنسان هي هنا فقط.. في حضن تلك المرأة!

❖ ❖ ❖

كلما كنت أغادرها أشعر أنني أظمأ إلى رائحتها.. إلى لمساتها.. إلى احتوائها إياي كطفلٍ بين ذراعيها الحنونين.

❖ ❖ ❖

في لقائنا الثالث لمَّحت لي بكلمات قذفت بي إلى هاوية كانت بدأت تغيب عني.. "أنا خايفة احمل منك".. قلت دون تفكير.. "إياكي.. اوعي تعملي كدة"، شعرت بالغضب، وأوشكت أن أثور عليها... غبت عنها لأشهر... حتى شعرت أنها أوحشتني.. شعرت بافتقادي إياها بدرجة أعاقتني من مواصلة الحياة دون حضنها فرحت أبحث عنها!

❖ ❖ ❖

لم أطرح أبدًا ذلك السؤال على نفسي.. "هل أحبها؟!" وسأظل أهرب من إجابته حتى أبعد مدى.

ظللت بين رغبتين محمومتين تتنازعانني.. وحشتها، وشبح الحمل.. هل أستطيع خوض تجربة أخرى من هذا النوع؟!

❖ ❖ ❖

انتصَرتْ أخيرًا على مخاوفي وأردتني أسيرًا بين ذراعيها.. كانت الوحشة عنوان اللقاء.. ونهلت من حنينها وحنانها لخمسة أيام متتالية.

كنت في ظروف نفسية معقدة، وكدت أنفصل عن زوجتي إلى الأبد.. حين سمعت صوتها على الهاتف الصغير.. "ازيك".. فرددت متهللاً.. "ياااااااااااه.. وحشتيييييييييييييني"

❖ ❖ ❖

التقينا مرتين خلال شهر.. ثم شغلتنا الحياة لأيام، وربما لأسابيع.. ثم وقعت في ضائقة مالية.. حدثتها لأخفِّف عن نفسي ما أنا به، فعرضت مساعدتها عليَّ.. فوافقت.. التقيتها لتعطيني مبلغًا من المال لأسدِّد جزءًا من ديوني التي تراكمت.. التقيتها قريبًا من عملي.. ومن بيتي.. رجوتها أن تأتي معي إلى منزلي.. تردَّدت لدقائق.. ثم أمسكت يدها ناهضًا من ذلك الكازينو على النيل.. وسرت في طريقي دون أن أفصح عن وجهتي.. سارت معي مستسلمة.. أوقفت تاكسيًا.. بعد عشر دقائق كانت في حضني.. هناك.. على كنبة الأنتريه أمام التلفزيون في شقتي التي انقلب عاليها سافلها من فرط إهمالي.. اقتربت منها أكثر

فأكثر.. رحت أتشمَّم جلدها الطري، وأستنشق عطرها الوردي الذي طالما سكرت به.. ضممتها إليَّ بشدة وبشيء من العنف.. أمسكت يدها واصطحبتها إلى فراشي الأبيض في تلك الغرفة ذات الطراز الأمريكي التي اختارتها زوجتي كغرفة نوم.. قالت لي "رقيقة الأوضة.. ذوقها حلو.." ابتسمت.. ورحت أخلع عنها ثيابها قطعةً فقطعة.. وأقبِّل جسدها بنهم.. حتى ذوَّبتها وذبتُ معها في حالة من التوحُّد اللانهائي..

حين انتبهنا على حالة انتشاء كامل وذروة وصلنا إليها في نفس اللحظة قالت لي "أنا حملت منك دلوقتي".. وكأنها بعد أن راقصتني التانجو صفعتني على خدي بكل ما أوتيت من قوة، وألقت بي في متاهة لا تنتهي!

❖ ❖ ❖

كان لا بد أن ترحل لأن لديها أعمالاً كثيرة، كنت أرجو لو ظلَّت معي الليلة..

كان لقاؤنا التالي بعد أسبوعين تقريبًا.. على كنبة الأنتريه في شقتها كنت أحتضنها بشدة وبشعور مختلف قليلاً ملؤه الحب.. ربما أكثر من كل المرات التي التقينا فيها معًا.. رحت أشرح لها لماذا يسكنني الرعب حين أسمع سيرة الحمل، قلت لها عن حلمي بطفل يحمل اسمي من بعدي ويعمر بيت أبي الخالي من الأبناء الذكور سواي.. وحلم أمي بحفيدٍ مني يؤنسها ما تبقَّى لها في حياتها، وحكيت لها عن تلك التي أحضرت لي جنينها مني في برطمان زجاجي ورحلت!

مارسنا الحب مرات خلال الأيام الثلاثة التي قضيناها معًا، لكن شعورًا غامضًا كان يملؤني بالتوتر، وهي تشرد كثيرًا.. لم تخفِ تخوُّفَها أمامي من كونها حاملاً مني منذ لقائنا الأخير، وشبه اعترافها أنها لا تحمل سوى في الأماكن الغريبة، وأن حملها بابنتها كان في ليلة قضتها مع زوجها الراحل خارج بيت الزوجية، وكذلك حملها مني (لو كانت كذلك، وهذا ما تحسُّه بشدة وتخشى أن تصرِّح لي به) في هذا اللقاء الوحيد بشقتي!

حين عانقتها قبل رحيلي كدت أشعر أن تلك هي المرة الأخيرة التي سنمارس فيها الحب!

❖ ❖ ❖

"أنا قلقانة.. ميعاد دورتي قرب بس انا حاسة جدًا انها مش هتيجي".. كان صوتها مشحونًا بالقلق.. "قصدك إيه؟ انتي عايزة تقولي لي انك حامل؟! أنا مش قلت لك خلي بالك؟؟ أنا قلت لك مليون مرة اوعي تحملي!". غابت عني لأيام ثم عاودت محادثتي على فيس بوك.. "أنا عملت اختبار وطلع إيجابي".. رددت عليها بانفعال شديد: "وانا مفروض اعمل ايه دلوقتي؟ أنا كان ناقص ابوس رجلك..".

كنت أشعر أنني في كابوس لا ينتهي.. ليست تلك هي المرة الأولى التي أتعرَّض فيها لتلك التجربة، لكن الظروف تلك المرة مختلفة تمامًا.. فيبدو أنني أحببتها.. وأخشى أن أفقدها.. وتلك التجربة الكابوسية تجبرنا أن نفترق! وتُفقدني إياها إلى الأبد!

كنت أشعر أن العجز قد تفشَّى بداخلي.. لا أنا قادرٌ على أن أنهرها، ولا أطيق أن أتابع التفاصيل، كما أنني لا أملك القدرة على الوقوف إلى جانبها، فقط رحت أهرب منها بقدر طاقتي، ولم أسأل عنها إلا عددًا محدودًا من المرات.. وثرتُ عليها في إحدى المرات.. وقلت لها في تحدٍّ: "احتفظي بيه. وبعدين ارفعي قضية إثبات نسب تقعد في المحاكم ٣ سنين.. وطبعًا انتي مسجلة المكالمة دي..".

لا أنسى نبرتها المهزومة حين نفت مجرد تفكيرها في ذلك، لكنني قرأت بين نبراتها حزنها على اختفاء الجانب الإنساني بداخلي تمامًا!

ترى هل كنت فعلاً معدوم الإنسانية معها؟! لم يكن بإمكاني أن أخوض تلك المعركة في هذا التوقيت الغبي، كيف وأنا أسير في إجراءات انفصالي عن زوجتي أتورَّط في علاقة أخرى بتفاصيل مشابهة؟! مرة أخرى أضطر إلى الزواج إنقاذًا للموقف وفقط؟! لن أفعل هذا ثانية، كما أنني متأثر بشدة لأنني لا أستطيع الاحتفاظ بذلك الطفل الذي كنت في قمة احتياجي إليه، ولو لم أنجبه الآن فلا وقت يسعفني فيما بعد نهائيًا لإنجابه!

❖ ❖ ❖

بعد أن أكدت لي أنها أنهت قصة الحمل كنت أحاول أن أبدو أمامها غير مهتم حين سمعت صوتها، كعادتها، متألقًا.. وكأنها تعلن لي أن كل شيء على ما يرام.. حتى لو كان لي أن أرفض استمرارها بالحمل، فكيف أمنع استمرارها بالتفاؤل؟!

تلك المرأة الخارقة أحبَّتني، وإن لم تتلفَّظ بذلك أبدًا، لكنني لا أملك الجرأة لألتقيها مرة أخرى، رغم كونها الأروع بين من عاشرتهن من النساء، وترنُّ في أذنيَّ ضحكتها التي كانت تطلقها حين تقرأ ما أكتبه وهي لصيقتي على كنبة الأنتريه. نادرًا ما تعلِّق، ودائمًا أدَّعي تجاهل تعليقها وكأنني أخشى أن يبدو ما بيننا على السطور.

لا أدري سوى أنني أشعر كم أنا ضعيف أمام سطوتها، فهي ليست مجرد أنثى محبة، بل امرأة طاغية متسلِّطة قوية.. تدير الأمور جميعًا بخفة. تعاملني كطفلها. تدلِّلني.. تهدهدني.. توفِّر لي كل صنوف المتعة الحسية والمعنوية، حتى سجائري لا تنسى أن توفرها لي دومًا.. طوال الوقت الذي أقضيه معها.

أشعر أنني في بيتها أستمتع بانعزالي عن مشاكل عالمي، أشعر بقمة الاسترخاء، بأقصى سعادة، بالأسمى من كل شيء، وحين تأتي اللحظة التي أُجبَر فيها على المغادرة أقاوم بشدة كطفل يُنتزَع من أحضان أمه.. أعشق صُحبتها.. لا أنكر هذا أبدًا، وأنام بعمق في فراشها، لكنني لن أدع لنفسي الفرصة أن أكرِّر ذلك أبدًا بعد ما حدث، رغم أنها ما زالت تريدني وتشملني بحنانها اللامنتهي. ربما أي أخرى في مكانها لكان أقل ما تفعله أن تقوم بعمل "شيفت ديليت" لي من حياتها كاملةً، لكنني بالفعل أمام أنثى مختلفة تتفوق لديها نزعتا الأمومة والحب على كل ما عداهما. هي تسأل عني بين الحين والحين، وتسرِّب لي رغبتها في التقائي من جديد، متحدية كل ما عانته من عذابات، والأكثر متحدية خذلاني لها وموقفي شديد السلبية منها.

كيـف أتشـدَّق طوال الوقـت أنني أسـير الأنثـى إن أحبتني، وأننـي أحيـا بمبـدأ "تراعيني قيـراط أراعيك قيراطيـن" وأنا في الواقع كلما رقَّت هي ازددت قسوةً وبداوةً في تعاملي معها!

متى ستملُّ سلبيتي وتخاذلي عنها بهذا الشكل؟ أو السؤال الأكثر واقعية: متى أتجرَّد أنا من تلك القشرة الزائفة من الرفض والجفاء؟!

ربمـا هـي لا تعرف أننـي أعاقب نفسـي قبـل أن أعاقبها على هذا الخطأ الشنيع الذي تورَّطت فيه، لو كانت ظروفي مستقرَّة وأستطيع أن أكون إنسانًا طبيعيًا لتزوَّجتها، لم أكن أبحث عن سـعادة أكثـر من تلـك التي عشـتها بين يديها، لـم أكن أبحث عـن أمـان أكثر من ذلك الذي كنـت أحياه وأنا مسـتمتع تمامًا بفراشها.. كنت أرتاح في بيتها أكثر من راحتي في بيتي.. كان وجودهـا ولـو مـرة كل شـهر هو المعـادل الموضوعـي لكل ما يزعزع أماني وهدأتي في هذا العالم.

قـرَّرت أن أكـون رجلاً سـطحيًا ولا أورِّط نفسـي مـع امرأة. "وممارسـة الحـب؟!" نعـم يقتلنـي التسـاؤل حين أصـرُّ على هذا الموقف، لا شـيء سـوى محادثات شفهية أضمن أنها لا تؤدي في النهاية إلى الحمل والإجهاض.

أعترف أنني لا أطيق أن أضع أصابعي على بطنها التي كانت تحمـل ابنـي وأنني مـن أجبرتها علـى التخلِّي عنه.. كيـف أتلذَّذ بالنظر إلى عينيها وأنا أضاجعها إن كنت أعرف تمام المعرفة أن ابني ذا الذي اشتركنا في قتله يختبئ هناك بين هذه الجفون؟!

كيـف أتحسَّـس ذلك الصـدر الذي يئـنُّ بين أصابعـي لأنني

أوقفت أنزيمات تكوينه للبن إجباريًا؟! كيف أستقبل تأوُّهاتها المتلذِّذة إن كانت ستختلط حتمًا بتأوُّهات الفقد والإجبار على فراق الابن؟ الابن الذي دائمًا ما تصرِّح هي أنها حزينة بالأحرى لأنه جزء مني!

لست جلادًا ولكنني أشفقت على نفسي وعليها من ذلك اللقاء الذي كان سيمعن في تدمير احتمالنا لواقع ثقيل مسبقًا، ثم تم الإمعان في تشويه كل بقاياه!

❖ ❖ ❖

أرجوكِ.. لا تغضبي.. ولا تتهميني بالقسوة حين أرفض لقاءك، فأنا أشفق من تبعات ذلك اللقاء، وأفضل أن يظل في خيالك آخر ما أبدعناه على مدى العام وأكتفي بأن ترافقك الذكرى بأنني الرجل الأروع في حياتك، كما أعترف أنكِ الأنثى الأروع والأبدع في حياتي، وأنني لو خيِّرت لما كنت لأختار أبدًا سوى حضنك ورعشة عينيك حين كنت أملؤك نشوة؛ أن تبقى لك مني الذكرى خير من ألا يبقى شيء على الإطلاق..

لست موقنًا أنها ستقدِّر موقفي أبدًا، ولها أن تظل رافضة موقفي السلبي هذا، وأظن أنها ربما يومًا تتخذ قرارًا بتجاهل وجودي تمامًا، ولها كل الحق في ذلك، ولكن لِمَ أراهن على هذا، وأنا أعرف أنها تلك المثابرة التي لا تعترف أبدًا بالهزيمة؟! نعم هي لو قرَّرت أن تخطفني من جديد ستفعل، ولكن ماذا تنتظر؟ لست أدري!

❖ ❖ ❖

(٦)

أتربَّع في رقعتي المدوَّرة، بعيدًا، لأول مرة تقريبًا، عن ذلك الحدث الذي اعترى حياتي مؤخرًا، وجعلني لا أدور سوى في فلكه وحده، تلك المرة وجدت ما يشدُّني بعيدًا تمامًا، ذلك الفتى اليافع، ابن العشرين، طالب الهندسة، ابن أختي الذي خرج يوم السادس عشر من أغسطس، مع كل من رفضوا تنويعات العنف التي مارسها الأمن على معتصمي رابعة العدوية والنهضة، رغم أنه لم يكن أبدًا منتميًا إلى أي حزب، وهلَّل مثلي "اللّه أكبر" يوم أعلن الفريق السيسي (حينها، الآن هو المشير وربما بعد أيام يكون السيد الرئيس) حالة الطوارئ، وأسندت مهمة تسيير شؤون البلاد لرئيس المحكمة الدستورية العليا المستشار عدلي منصور، وعزل الرئيس الإخواني محمد مرسي العياط، الذي كان لقبه السائد في المعركة الانتخابية "الاستبن"، نظرًا إلى أن المهندس خيرت الشاطر، مرشَّح حزب الحرية والعدالة رُفضت أوراق ترشُّحه للمنصب فكانت المفاجأة أن "استبن" الإخوان صار رئيس جمهورية مصر الديمقراطية بعد الثورة التي أطاحت بالحاكم المستبد الذي حكم البلاد ثلاثين سنة!

❖ ❖ ❖

أمام قسم شرطة الأزبكية أقف مع زوج أختي انتظارًا لموعد الزيارة في الثامنة مساءً، أو حين يسمح الضابط

النوباتجي لأهالـي المحتجزين بالزيارة، بعد أن يتلذَّذ بنظرات الذل والقهر في عيون هؤلاء الذين ينتظر كلٌّ منهم من يخصُّه بالداخـل، وكأنـه يريد أن ينتقـم مـن كل المحتجزين ليس فقـط في أنفسـهم، بل في ذويهم أيضًـا، وكأن هذا يحقِّق له نوعًا من الانتشـاء السادي الذي لا يخلو منه ضابط شرطة، أو هكـذا ما زلت أتصوَّر، لم أتعامل أبدًا عن قرب مع أيٍّ منهم، وإن كان الفضـول قـد سـكنني لفتـرة مـا أن أفعـل، كنت حينهـا طالبة بالجامعـة، وكنت أرى قائد حـرس الباب الذي كنـت أدخـل منه يوميًـا تقريبًـا، وكان برتبة نقيـب، لكنه فـي الحقيقة كان بعد لم ينغمس فـي الإجرام لأذنيه، فكان هادئًا، ودودًا، دافئًا، رغم جفاف المهنة وجفائها، لكن ذلك الضابـط الذي جلس بجسـد ضخم أمام مدخل القسـم عاقدًا حاجبيـن عريضين كجرَّافتي زرع، علـى عينين تلمعان بكَمٍّ مـن الشـر المجاني، وكـرشٍ منتفـخ كامرأة تنتظـر لحظة الوضـع فـي أية دقيقة، هـو مثـال للضابط المثيـر للكراهية والقرف والتقزُّز معًا. بعد الثامنة بعشـر دقائق سـمح لنا جميعًا بإشـارة من يده بالدخول. هرولة كتلـك التي كنا نهرولها في سـعينا بيـن الصفـا والمروة حين كنـا نؤدي مراسـم العمرة، وفـي لحظـات كنا قد وصلنا إلى المكان الذي سـندخل منه إلى تلك الغرف المتكدِّسـة في ممر ضيق شـبه معتم، وآلاف الأفـكار تتوافد علـى ذهني، وأنـا ما زلت حتى تلـك اللحظة أخشى ألا أراه، طابور من الرجال، وآخر من النساء كنت في مقدمته. يقوم عسكري متطوع بفحص كل زيارة بيده، سواء

أكل أو ملابس، أو أي شيء مسموح به ومرئي. والويل لمن يُضبَط معه شيء مخالف!

تلك اللحظات التي انتظرت فيها دخول أول زائر وخروجه حتى ندخل بعده كانت لحظات لا تمر، ومئات التخيُّلات تطرأ على بالي. أشار إليَّ أمين الشرطة أن أتحرَّك بعد أن فتَّش كل الحقائب البلاستيكية التي كانت معي، ووضع أصابعه في كل حقيبة على حدة، وتحركت أنا وزوج أختي إلى الداخل، وهو أمامنا فتح إحدى الغرف لا تزيد مساحتها عن ١٢ مترًا مربعًا، بها عدد كبير من البشر، لم أكن رأيت ابن أختي منذ أربعة أشهر ونصف، فإذا به يخرج إلينا، غاص في حضني لأقل من دقيقة، لم نتبادل أي كلام سوى جملة واحدة كرَّرها مرتين "أنا هابأي كويس يا خالتو.. هابأي كويس"! وفجأة قطع أمين الشرطة ذلك الحضن الذي لم يشبع ظمئي نحوه طالبًا منا المغادرة!

❖ ❖ ❖

كيف لهذا الشاب الذي يملأ الدنيا حركة حين يتعرض للحبس؟! هل يستطيعون حبس أفكاره المحلِّقة، أم يسهم حبسه ذا في غسيل مخه يومًا ما؟!

تركت زوج أختي ذاهلةً وعدت إلى أصدقائي الذين يجتمعون في ليلة رأس السنة على أمل أننا سنستعيد بعضًا من جنوننا الذي رافقنا في مثل تلك الليلة في العام الفائت، ولكن هيهات!!

أسناني أيضًا تعلن حالة من العصيان المباغت.. لا أملك التجاهل تلك المرة... وبما أنني شخص متمرد على الأدوية بطبعه

أرفض أن أتداوى.. وربما ذهبت إلى الطبيب وتجاهلت الالتزام بالأدوية، لكن يبدو تلك المرة أنني سأفشل في التجاهل..

❖ ❖ ❖

أشعر أن حوادث كثيرة تتدافع على ذهني كسيل، وكلها تصر أن أدوِّنها على الورق، فكما أن "الصورة تسجيل لحظة بتموت"، كذلك كل الأفكار التي تراودني وأنا سائرة، دائمًا تتفجَّر بذهني أفكار هي الأكثر عبقرية في حياتي، لكنني بمجرد أن أصل إلى المكان الذي أقصده تتبخَّر كلها، تمامًا مثلما كان يحدث وأنا في الخامسة من عمري، حين كنت أذهب إلى الجنة كل مساء، وأحاول في الصباح أن أتذكر أي شيء، لكنني أتميَّز غيظًا لأنني لا أستطيع تذكُّر شيء من رحلتي، إلا صورًا التقطتها ذاكرتي لجزء من الثانية، كذلك السور الذي كنت أقفز منه إلى الداخل، وشجرة البرتقال الكبيرة التي تتوسَّط جنتي القديمة!

❖ ❖ ❖

ليلة ثقيلة الوقع على كل المستويات، فرأس السنة يرتبط معي بتذكارات لا تنتهي، وأحداث غارقة في الذاتية لكنها شكَّلت في مجملها جزءًا لا يمكن تجاهله في شخصيتي..

لا أدري متى سرقني النوم من زحام أفكاري....

❖ ❖ ❖

ما زلت كلما خرجت من بوابة العمارة التي أقطنها أول ما

تلتقطـه عيناي هو ذلك الشـاب فـارع الطول ابن البـواب تلتهمني نظراتـه في شـبق ممزوج بوقاحة لا تخفى علـى أي ناظر يصادفه المشـهد يتمنَّـى لو أننـي فقط أترك لـه فرصة أكبر لارتشـاف جسدي بعينيه الحادتين.. تجاهلته وانطلقت.

❖ ❖ ❖

بابتسـامة من بائع كروت الشـحن أبدأ يومي متفائلة.. أسـير إلـى حيث مكتب البريد أسـتلم حوالة شـهرية عن عمل شـهري أؤديه من المنزل، وأنا في طريقي إلى محطة المترو أرتقي رقعتي المدورة.. أظن أنها ثبتت نوعًا ما عند هذا الحد.

الأصـوات كلهـا تتشـابه فـي لحظة مـا.. الآهة نفـس الآهة.. والزفرة نفس الزفرة.. والانتفاضة في هذا الجسـم تشبه نظيرتها في جسم له كيمياء متقاربة.. وهل كل من نرتبط بهم في حياتنا سوى صيغ متشابهة لنفس المعادلات الكيميائية؟!

كل الأشـخاص الذين ارتبطت بهم في حياتي يشتركون في مجموعـة صفـات.. ربما منها ما هو سـبب أساسـي فـي ارتباطي بهـم.. خضت عددًا من التجارب، لكنني لا أعترف بأنني أحببت حقًا سوى مرات قليلة، حتى من تزوجته لم يكن التجربة الأقوى فـي حياتـي.. كل من عاشـرتهم كانوا أضعف منـي، حتى ذلك الرجل الوهم طبيب الأسنان.. من تصوَّرته الملك الجبار.. لن أنسى دموعـه كطفل وهو يعترف أمامي بأنه ضعيف، وأنه لم يسـتطع أن يثبت لي أنه رجل، وأنه لا يستحقني وليس له شرف الزواج بي.. افترقنـا، كـان مرغمًـا لأنه لم ينجح في مواجهـة مجتمعه وأهله

وخصوصًا أبناءه وزوجته! حين جاءت لحظة اعترافه كان قد سقط نهائيًا من حساباتي.. لم يعد يقنعني أن لديه الأمان الذي أبحث عنه منذ سنوات كثيرة تعبت في عدِّها..

❖ ❖ ❖

ربما من أول قصة سمعتها من امرأة أبي التي لم يكن مكتوبًا لها أن تصبح أمًا.. فقرَّر أبي الزواج بأمي، ابنة خالته الأرملة التي رحل زوجها شابًا وتركها مع طفل وطفلة.. ربما كدليل أنها امرأة ولود.. أرضعتني زوجة أبي إشفاقًا عليها ونفورًا من أبي بقصص ظلمه لها وقسوته عليها.. ولم تنجُ أمي نفسها من بعض الحنق الذي ربَّته تلك المرأة بداخلي، فلم أستطع أن أتخطَّى هذا الحاجز بيني وبين أمي سوى بعد سنوات طويلة وتجارب مُرَّة. ذلك الرجل الذي لُذتُ به وأنا في أقصى حالات تمرُّدي على أهلي كان سببًا إضافيًا لتورُّطي بمشاعر انتقام من كل أخرى تحتكر رجلاً.. صارت لذَّتي حين أسمع منه أنني الأنثى الوحيدة على ظهر الأرض، تشبعني.. ربما أكثر من محاولاته استثارة أنوثتي تلك في كثير من الأحيان..

لماذا رغم أن أمي هي الزوجة الثانية وتجربة زواجها بأبي تجربة مُرة عاصرت جزءًا كبيرًا من تفصيلات المرارة فيها كان كل رجالي أزواجًا في قصص ما زالت حية ولو على الورق؟!

في كل مرة كنت أتلذَّذ بأن أشعر أن حبي مستحيل وأنني أبدًا لن أتزوج من أحب.. زواجي الوحيد كان بمطلَّق ولديه ابن من زوجته الأولى، وحتى بعد وفاة كمال كانت كل احتمالات

العلاقات أيضًا برجال متزوجين وحياتهم بشكل ما مستقرة.. هل أنا بداخلي أرفض أن أكمل تجربة إلى النهاية فيختار عقلي الباطن كل مرة أن يخوض تجربة تحمل بذور فشلها منذ اللحظة الأولى؟ ألأنني لا أحتمل رجلًا واحدًا إلى الأبد؟! ألأنني أعشق التغيير وأبحث دائمًا عن الأجمل والأكمل؟! ألأنني أنتقم من كل الرجال وكل النساء أحاول أن أدمِّر كل علاقة يزعم ذووها أنها قائمة ومستقرة وهي أوهى من بيت عنكبوت؟! لا شيء محسومٌ تمامًا.

❖ ❖ ❖

وأنا أرتدي ملابسي في الصباح فوجئت بالاسترتش الذي أرتديه تحت ملابس الخروج في حالة جيدة جدًا، كيف صمد أمام إفرازاتي التي كانت تثقب القطعة الداخلية ثم تحرق بعضًا من أنسجة الاسترتش هو الآخر! جميل أن يصمد القطن مرة ما متحديًا فمَ شيطاني باقتدار.

❖ ❖ ❖

كثيرًا ما يتكرَّر حلمي الآن بأن شعري طويل، ولشعري قصة مأساوية كلما ذكرتها شعرت بندبة جديدة في الروح!

كان عمري حينها أربع عشرة سنة، حتى تلك السن كانت أمي هي من تصفِّف شعري. قضيت أسبوعًا مع زوجة أبي فقرَّرت أن تتركني أدير معركتي مع شعري بمفردي، فكنت أصفِّف مقدم رأسي وأطراف شعري وأترك المنطقة الوسطى ملبَّدة، وحين عدت إلى بيت أمي رحت أحاول أن أصفف مساحة أكبر

من شـعري فلم أستطع، فاسـتعنت بأمي لإنقاذ ما يمكن إنقاذه من شعري.

لن أنسـى كومات الشَّعر المتراصة أمامي وسط ضفائر دمع أمـي ودمعـي. يومهـا أصيبت أمـي بالحمَّـى حزنًا علـى ضفيرتي التي كانت تلمس الأرض وأنا جالسـة، وأنا أصبت بالتهاب حاد وصديد في كليتي اليسـرى مـن فرط ما بكيت في هذا اليوم، ظللـت أعالـج منه لأكثر من سـنة، ولم يعد شَـعري أبـدًا إلى ما كان عليه من قبل!

❖ ❖ ❖

(٧)

قــرَّر ابن أختــي الذي لا يــزال محتجزًا على ذمــة مجموعة من القضايا الوهمية ، منذ تجربة فشــله في الســنة الإعدادية بكلية الهندســة أن يكــون طالبًا مجتهــدًا ، ويحصل علــى تقدير يؤهله لتحقيــق طموحاتــه ، ويفتح له المجــال أمام تنفيــذ اختراعٍ كان يحلم بأنه سيحل مشكلة نقص الطاقة الكهربية في مصر.

الجمعــة الموافــق ١٦ أغســطس ٢٠١٣ ، يوم فارق فــي حياته. كانــت المــرة الأولى التي قــرر فيها النــزول إلى الشــارع بعد ما رآه بعينيــه المتمرِّدتين حتى على النظارة والعدســة اللاصقة التي طلــب منه الطبيــب ألا تفارق عينــه اليمنى. كان فــي زيارة أخيه المرابــض بميدان النهضــة ويحمل له الطعام والملابس وشــاحن الهاتــف المحمــول وكل ما يمكــن أن يحتاجه في المعســكر ، إذ كان أخــوه مســؤول لجنــة الإعــلام بالميــدان ومعظــم الوقت يقضيه بكلية الهندســة حيث درس ويدرس أخوه أيضًا. لم يقتنع مهنــد يومًــا بأي كلام قاله أخوه عن الجماعــة ، ولا أظن أن هذا يمكن أن يحدث أبدًا.. كان يرفض الاعتصام كوســيلة للتعبير عــن الرأي. وحين ســمع أن هناك محــاولاتٍ للتفاوض وأن قيادات الإخوان يرفضون تزايدت أزمته مع تجمُّد أفكارهم وسلَّم حينها أن هؤلاء لا يبحثون ســوى عــن مصالح جماعتهم وكفى ولتذهب مصــر إلــى الجحيم! صباح يوم الأربعاء ١٤ أغســطس على إحدى

قنوات الأخبار التي بفضلها تعاطفت أختي وابنتها مع الإخوان، وربما طالت قناعات زوجها أيضًا. الفزع.. ربما تلك أنسب مفردة للحالة التي كانوا عليها حين استيقظوا.. فابنهم يبيت الليلة في ميدان النهضة.. وتبث الفضائيات بالكاميرات الحية ما يحدث في ميداني النهضة ورابعة العدوية، وتعلن أن قوات الشرطة المصرية تستخدم الجرافات وقنابل الغاز وأسلحة الخرطوش، بل والأسلحة الحية لتفريق المعتصمين وتفريغ الميدان. تحولت شاشة التلفزيون إلى مزيج من الدم والدخان. هاتفت ابن أختي الذي كان مقيمًا بميدان النهضة فقال لي إنه بكلية الهندسة وإن قوات الأمن تحاصرهم وتمنع الخروج.. ظل يتنقل من مكان إلى مكان حتى استطاع أن يهرب من عيون الأمن وظل سائرًا حتى وصل إلى حيث تقيم أختي الصغرى بمكان قريب من الأحداث فبات ليلته.

بعد كم الدماء والقتل والحرق الذي امتلأت به كل شاشات التلفزيون المحلي والفضائي شعرت بغصة، وتألمت كثيرًا.

لم يكن هناك أي مبرر لحرق الخيام بما فيها من قتلى وربما جرحى كما نقلت الفضائيات. مصري يقتل مصريًا. يحرقه. يمثِّل بجثته. كم من الإخوان يستحقون هذا المصير! لكن كم شخصًا ظُلِم؟ كم شخصًا كان يدافع عن الشرعية؟ كم شخصًا انضم إلى الميدان لمجرد رفض الحكم العسكرى! ولا يمكن نسيان ما فعلوه طيلة أكثر من نصف قرن، فهل معنى أن أهرب من الأسد أن أستسلم للذئب!

تم حشد الآلاف في كل مكان للاعتصام في ميدان

رمسيس ومحاولة شل حركة القاهرة تمامًا.. فوجئت أن هذا الفتى الرافض لاعتصامَي النهضة ورابعة العدوية قرَّر - للمرة الأولى- النزول إلى الشارع، والمشاركة في التظاهر مناديًا بتطبيق الشرعية وحقن الدماء والكف عما يحدث.

كان نزوله عن قناعة أكيدة بأن ما حدث وشارك الجميع فيه دون قصد أو ربما دون فهم هو انقلاب سياسي لن يتم استيعابه سوى بعد شهور! وما خفي كان أعظم.

المدهش أن ابن أختي الأكبر الذي ينتمي إلى جماعة الإخوان المسلمين قد استطاع الهروب من هذا المأزق، أما الفتى المتحمِّس الذي لا صلة له بالإخوان ولا من والاهم وابن عمته فقد كانا أكثر سذاجة، ربما لقَدرٍ ما بانتظارهما، فحين سمعا نداءات المسؤولين ومناشدتهم للطلبة أن ينتظروا وسيتم خروجهم خروجًا آمنًا انتظرا على أساس أنهما سيخرجان بتلك البساطة! فتلك هي المرة الأولى التي يشاركان فيها في تظاهرات ورفض تلك الممارسات في حق المواطنين، وفي حق كل من خرجوا يعترضون على التفويض بالقتل يوم الرابع من يوليو..

كنا معًا نؤيد الفريق السيسي حينها (المشير بعدها، والآن السيد الرئيس) وقلنا إنه أخيرًا هو ذلك الرجل لمصر، كنت رافضةً بشدة أن تحكمنا جماعة مكبوتة خرجت من جحورها لتنتقم أشد انتقام لنفسها وكفى!

وهذا ما جعلني مستريحةً لحقن الدماء في اليوم الأول فقط، يوم الثلاثين من يونيو، ذلك اليوم الذي أندم الآن حين أذكر أننا كنا سعداء به!

يوم السادس والعشرين من يوليو أفقت على الحقيقة التي لا فكاك منها.. التفويض بالتصدِّي للجماعة المحظورة ومناصريها.. الفخ الذي تم نصبه ووقع فيه الكثيرون. ملايين المصريين احتشدوا مرة أخرى في شوارع مصر الكبرى وميادينها لتفويض الفريق السيسي، حينها، للتعامل كما يرى مع جماعة الإخوان، وما أغفله هؤلاء جميعًا أن من يملؤون الشوارع ليسوا الإخوان فقط، وإنما هناك من اغتيلت أحلامهم في الحرية وفي الديمقراطية، ومن تم التلاعب بهم والتعامل معهم على أنهم مجرد قنطرة لكرسي الحكم!

المهم أن اليوم صار أيامًا، وأن الشهر صار شهورًا، ولا أحد يدري إلى متى سيظل هؤلاء الشباب محتجزين في هذا المكان الذي وإن صاروا يعاملونهم فيه بشيء من الآدمية فهذا لا ينفي أبدًا عنه أنه سجن.. وجدران.. وإرهاب.

هل هو عامٌ من عمر ذلك الشاب ضاع وراء تلك القضبان، وذنبه أنه قرر أن يعترض على التفويض بالقتل، حتى لو كان مخطئًا فليس هذا هو عقابه المناسب.. ليس لهم أن يحرموه من أبسط حقوقه في الاعتراض بسلام، ما دام لم يخرج عن مبادئ التظاهر السلمي، بل إنهم قرروا تلفيق أربع عشرة تهمة له ولمن كان قدرهم أن يحتموا ببيت الله، والداخلية من خلفهم والبلطجية من أمامهم.. نعم أُسقط في أيديهم، وكأنهم يكرِّرون نفس واقعة رفع المصاحف على أسنة السيوف، حين ظنوا أن المسجد هو خير مكان للاحتماء به، وأن بقية من آدمية ستجعلهم يمتنعون عن حصارهم بالداخل، ولكن ما رآه هؤلاء

الشباب داخل المسجد كان علامة فارقة في حيواتهم جميعًا ، لا حياة مهند وحده..

كانت تلك اللحظة التي تم فيها القبض على مهند ، انقطاعًا لسبيل آخر من سبل الرجاء في حياتي ، فقد كان رجلي البديل في مجتمع ذكوري بإصرار ، حتى إنه كان مسؤولاً عن كثير من احتياجاتي المنزلية ، فكان يتسوَّق بدلاً مني ، إضافة إلى أنه كان يصطحبني في كثير من رحلاتي الأسبوعية أو الشهرية وأحيانًا اليومية للشراء أو النزهة أو حتى لحضور أية فاعليات ثقافية.

كان معي حين انتقلت إلى ذلك المسكن القريب من وسط المدينة إثر وفاة زوجي الذي رحل فجأة ودون سابق إنذار!

عشت وطفلتي اليتيمة من جديد.. الوحدة ومرارتها من جديد.. الفقد وآلامه من جديد!!

هناك من أنهت القنابل المسيلة للدموع حياتهم ، ولم يكن أحد يملك إنقاذهم.. وهناك من تم التغرير بهم مثل مهند ، حين اقتادوهم في عربات الترحيلات ومعهم رجال من الأزهر قدموهم للشباب على أنهم ضامنون لخروجهم وسيتركونهم في أقرب نقطة آمنة.. حكى لي فيما بعد أن السيارة التي أقلته وبعض رفاقه قطعت مسافة تتعدى ثلث الساعة ، شعروا خلالها بانقباضة وبمجهول ما يتربَّص بهم ، ثم توقفت للحظات نزل منها الشيخ الأزهري ، ثم واصلت السير إلى معسكر طرة.. أُمِرْوا بالنزول واقتادوهم إلى داخل المعسكر الذي قضوا فيه أربع ليالٍ كانت مثالاً لكل ما هو غير آدمي في التعامل مع البشر ، ولم يتورَّع

هـؤلاء عن الضرب والسب لكل من يقع تحت أيديهم، وكلما علا شأنه زاد نصيبه من الإيذاء والإهانة!!

لم نكن نعرف شيئًا عن مهند منذ اتصل بأبيه وهو في سيارة الترحيلات من هاتف أحد الرفاق استطاع أن يحافظ عليه لدقائق أخرى قبل أن يسلبوه إياه على باب معسكر طرة، وأخبره أنهم في الطريق إلى طرة، وأن الشيخ الأزهري الذي ادَّعى أنه سيضمن لهم الخروج الآمن لم يكن سوى فخ وقعوا فيه بكل سذاجة!

كان مهند محظوظًا خلال إقامته بهذا المكان الذي به من الوحشية أكثر كثيرًا مما به من الآدمية، على حد ما حكاه لي، وإن كنت أظن أنه احتفظ لنفسه بكم من العذابات يفوق احتمالي واحتمال أمه ففضَّل ألا يبوح بشيء منه واخترع تلك القصة المثيرة للإشفاق والارتياح، فقد أخبرنا أن أحد الضباط التقطه من أيدي العساكر الغشَّم، معلنًا مسؤوليته عنه، وسأله ماذا حشره مع هؤلاء رغم أن مظهره ينم عن كونه صغيرًا، وأنه "مش وش بهدلة" على حد تعبيره! اخترع مهنَّد قصة لطيفة يبدو أنها أقنعت الضابط، مستغلاً أن لوجهه براءة لا تخفى على أمثاله، وهو الضابط المحنَّك الخبير بالبلطجية وأرباب السوابق..

ربما للمرة الأولى من كل شيء طعمها المميز، تذكَّرت تلك الفتاة التي قبَّلها مهند قبلته الأولى في حياته في العام الأول له بالكلية! ترى هل ستظل تذكره بعد أن صار معتقلاً ولا أحد يعلم إلى متى!

وتذكرت رسوبه للمرة الأولى وهو الطالب المتفوق والحاصل على ٩٥٪ في شهادته الثانوية، وذلك الدرس الذي تعلمه فكان أن

انتبه إلى دراسته وقرر أن ينجح بتفوق في كل الأعوام القادمة، لكن ما حدث قد وقف حائلاً بينه وبين طموحاته مؤجلاً حلمه ثلاث سنوات!

تذكرت أيضًا أول فيلم شاهدناه معًا في السينما، والذي لاقى صدًى عالميًا واسعًا "اسمي خان"، فيلم من إنتاج هندي أمريكي مشترك بعد أحداث أيلول الأسود كما تشتهر في أمريكا (أحداث الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١) وكان مهند في الثانوية العامة، وأكثر ما أذكره تلك الجملة الأشهر في الفيلم "My name is khan, I am not a terrorist"..

هل كان يعرف "خان" أن أحداثًا وشيكة في مصر والعالم العربي كله ستُرتكب وتغيِّر مجرى الحياة في الشرق الأوسط وربما في العالم أجمع خلال السنوات الخمس التالية لعرض الفيلم؟!

أيضًا للمرة الأولى تجربة الاعتقال، وتلك جبَّت كل ما سبقها، فإنها المرة الأولى التي يتعرض فيها أحد أفراد الأسرة لموقف كهذا، ويا لمرارته!

دخل مهند إلى المعتقل طفلاً، وإن كان في شبابه، والآن تضاعف عمره سنوات وسنوات.. لقد خبر الحياة وخبرته كما لو كان قد تعرَّض لتجارب أزمنة طويلة وعركته الدنيا وصار يحمل فوق كاهله عمرًا آخر انضاف إلى عمره الأصلي!

عرف خلف الأسوار العالية عالمًا مغايرًا عن ذلك الذي عاش فيه سني عمره العشرين.. فهناك عرف طعم اليقين بالله دون مطامع

أو أهـواء شـخصية.. وأتقن مهارات كثيرة لم يكـن ليتقنها بعد عشرات السنين، صار قائدًا لمجموعة تقترب من أربعين شخصًا منهم أساتذة جامعة وأطباء ومهندسون أكبر منه سنًا وأغزر منه علمًـا وخبـرة، لكنه كان اتفاقًـا ضمنيًا أن يتحمَّـل كل منهم المسـؤولية كمـا يراها، وكلهم قد تعلمـوا الكثير والكثير.. فقط يحز في نفسـي أن العام الدراسي ضاع منه هكذا بشكل مجاني، فلم يكن ليحتمل أداء الامتحانات والمذاكرة في قسم الأزبكية، ذلك المكان الأسـوأ فـي العالم.. قضى ما يقرب من عشـرة أيام يود لو ينجح في إسـقاطها من ذاكرته.. كانت أيامًا عصيبة له ولنا، بل هي الأصعب في حياته، وربما في جزء كبير من حياتي أيضًا.

اختلـط بمجرميـن حقيقييـن وأربـاب سـوابق وعـرف عالـم الجريمـة الـذي كانت خبرته بـه لا تتعدَّى الروايـات التي قرأها والأفلام التي شاهدها.

وأما عن المعتقل فهو عالم مختلف، ربما يشبه عالم الجامعة، أنمـاط مختلفـة اجتمعـت دون قصـد، وبـلا حيلـة فـي اختيـار المكان، لكنه الأفضل حالاً ربما من كل تلك المعتقلات التي نسـمع عنها من بعض الأصدقاء المتطوعين بالزيارة هنا وهناك، وأظـن أن مهند ورفاقه بما أوتوا من حسـن خُلق وعلم اسـتطاعوا أن يجبـروا جميـع العاملين بالمعتقل ضباطًا وعسـاكر وعاملين على احترامهم والتعامل معهم وكأنهم أهل مكان، باستثناء من يخالـف اللوائح والقوانيـن، فقد كان نصيبه حبسًـا انفراديًا أو أنواعًا أخرى من العقاب!

مـر مـا يقرب من عـام ولا أمل فـي تغيير الوضـع، ويبدو أنهم نسـوا أو تعمدوا نسـيان هؤلاء المشـاركين في أحداث مسـجد الفتـح، وهم يظنـون أنهم بهذا يعاقبونهم علـى جرم ارتكبوه من وجهـة نظرهم وهـو الدفاع عن الحق، ومحاولـة الوقوف في وجه الباطل الغاشم..

ظلوا صامدين.. ولم يثنهم ظلم ولا قسوة ولا تعذيب ولم تردعهم الأسـلحة المتأهبة للانطلاق عن إعلاء كلمة الحق.. والحق أحق أن يتبع...

❖ ❖ ❖

(٨)

حتـى أنت يا أحمد بخلت بالرحمة علـيَّ ورحت تجرف ما بقي مـن آدميتـي ليلة انتظار الخـلاص، أي أنثى كنـت تبحث عنها بداخلي وأنا أنزف دون أنين.. وكأنني تحت تأثير مخدر لا ينتهي مفعوله؟!

"سامحيني..

لا يمكن لفقير أن يمنح امرأة جميلة الأمان!".

مـرَّ يومـان دون سـؤال منه، فمنـذ أجريت الجراحـة لا يتغيَّب أحدنا عن الآخر لأكثر من يوم، ولكن فجأة بلا مقدمات عضَّ قلبي القلق، فما يمر به من أحداث هذه الأيام مرعب لأي شخص عادي، ما بالي بأحمد القلِق فائق الحساسية، ولا سيما بعد هذا الموقف الذي بدر منه تجاهي وأنا في أشـد لحظات حياتي تألمًا ووجعًا! اتصلت به بعد انتصاف الليل بنصف سـاعة، أضمن وقت لأجـده مسـتيقظًا، جاءني صوت نسـائي علـى الجهـة المقابلة، تردَّدت وأغلقت الخط، لحظات ورأيت اسمه على شاشة الهاتف، رددت فإذا نفس الصوت النسـائي، اسـتجمعت شـجاعتي للرد، نبـرات صوتهـا تؤكـد أنهـا أمه، خيـطُ شـبهٍ يجمـع صوتيهما: "آسفة.. تخيلت اني طلبت رقم غلط".

ردَّت بود من يعرف جيدًا من أكون: "لا يا حبيبتي ولا يهمك".

- ازي حضرتك؟

- الحمد لله يا بنتي. نحمده على كل اللي يجيبه.

- هو أحمد نايم؟

- أحمد تعبان أوي من امبارح.

- خير.. ماله؟

- مبادئ جلطة.

- يا ساتر.. نفس الحالة بتاعة قبل كدة؟

- أشد والله يا بنتي من المرة اللي فاتت!

لا أدري كيف انتهت المكالمة، صنبور من الثلج على قارعة رأس أصابتها الحمى.

"عد من أجلي إلى الحياة يا أحمد برغم كل شيء، وسأسامحك على ما فعلت بي ليلة استعدادي للوجع الأعظم في حياتي، بل قد سامحتك، لكن عدني أنك ستعود إلى الحياة!"..

❖ ❖ ❖

في طريقي اليومي إلى العمل بعد يوم واحد إجازة فوجئت بأرصفة وسط البلد المرصوفة بذلك النوع من الحجارة التي تستخدم في بناء الأسوار المزينة باللونين الرصاصي والنبيتي الشائع باسم "طوبي". في صفوف متوازية بدقة متناهية. ترى كم يصمد هذا الرصيف تلك المرة؟

قبضت حفنة من الرمل الأصفر الناعم، وقرَّرت الاحتفاظ بها حتى أصل إلى عملي، لم أندهش حين بسطت يدي على كوبري قصر النيل فلم أجد سوى ذرَّات معدودة من الرمل عالقة براحة يدي!

هكـذا حياتنـا.. ذرات مـن الرمـل تتسـرَّب مـن بيـن أصابـع السنوات!

❖ ❖ ❖

عـاودت الاتصال بأحمد للمرة الرابعة تـرد أمه، ولكنها تلك المرة في حالة سـيئة للغايـة، صوتها ممزوج بملـح دمعها، حالته تسـوء. يحتـاج إلى مستشـفى، والظروف لا تسـاعد على شـيء، المشـكلة أننـي أيضًا قـد أنفقت كل مـا أملك في تلك الشـقة التي اشـتريتها مؤخرًا، لو كان معي أية نقود لسـافرت فورًا إلى الإسـكندرية، لكنني لا أملك حتى ثمن تذكرة قطار، ما هذا الحظ!

❖ ❖ ❖

كلما أنَّ فم شيطاني تذكَّرتك، وأشعر كم أفتقد انسيابي بيـن عينيك، وعلى صـدرك العريض الدافئ دومًـا حتى في أبرد أيـام السـنة، كان يكفينـي حضنك لألتحف به بعـد أن نمارس الحب، ولا أشـعر أبدًا بالبرد أو الكسل، نشاطي يتجدد تلقائيًا بيـن يديـك. عيناك تشـعلان فيَّ كل شـبقي وعشـقي لممارسـة الحـب. أن أذوب بين راحتيك هو الأورجازم الأعلى بالنسـبة إليَّ، لا يهـم إن كنت أصل إلى القمة الجنسـية بقدر ما أتلذَّذ بتدليلك إياي، ومفرداتك الهادئة، الواثقة، تعرف متى تدهن أذني بوقعها المرطِّـب. كلانـا صـار يشـعر كيف يصـل بالآخر إلـى منتهى العشـق، منتهـى اللـذة، منتهى المتعـة. كيف لي بعـد كل هذا أن أختار ابتعادي عنك، وحرماني من جنَّتك التي اسـتمتعت فيها

بـ"طعـم الحـاجات"؟ حتـامَ أمارس القمع والظلم علـى ذاتي؟ أم أنَّ ابننا الذي لم يكتمل ذا سيقف بيني وبينك إلى الأبد؟ هل تتحوَّل كل المعادلات بيننا إلى ذكريات؟!

❖ ❖ ❖

ألـم مميت بأسناني، والطبيب يطلب مني إجراء بعض الفحوص والتحاليل الطبية، ويرفض أن يصرِّح بشيء، لكنني أقرأ في عينيه نبوءتي التي صار عمرها عشرين عامًا، منذ أول عام لي بالدراسة الجامعية، ومع أول إصابة لي في اللثة تنبَّأت أنني سأموت بسرطان اللثة، هو مشتبه في ذلك، لكنه لا يريد أن يصارحني قبل أن يتأكَّد، مهمة صعبة أن يخبرني بذلك. ولماذا الآن؟ ما زلت أحب الحياة، ما زلت رغم كل همومي أرى لذةً في أن أحيا، وأعشق ضحكاتي في عيون الآخرين، ما زلت أعشق غزَل العابرين ولو مجاملةً، ما زلت أستمتع بكلمات الحب والهيام، ولا سيما إذا لم تصادف صدًى بقلبي، لأنني أكون حينها في أعلى درجات الجبروت، أشعر أنني فرعون بتسلُّطي على ذلك المحب الولهان، الذي يتذلَّل ليقتنص ولو نظرة مني إلى حاله الرقيق، وأنا أتغطرس حين أمنحه إياها من طرف عيني، كما أن هناك الكثير من الأحلام بعد لم يتحقق.

❖ ❖ ❖

"اللّه.. ليس ملكًا لأحد". كان شعار كمال قبل أن يرحل في كل ما يكتب، كثيرًا ما كنا نتحاور حول أفكارنا عنه، كلٌّ يشكِّل مفهومه عنه حسب هواه.. أيًا كانت ديانته

الظاهـرة، نلتقي في نقاط كثيرة، ونختلف حول قشـور ربما لا تؤثـر في شـكل يقين كلٍّ منا، هو كان حيـن يكتب يقول إن اللّه (عـز وجـل) أبوه، ومن حقه أن يتدلَّل عليه، ويكفيه أنه يعلم بصـدق وجـوده إلى جانبه في كل ما يفعل، ربما لا يؤدي طقوس العبـادات المفروضـة، لكن يقينـه أن اللّه راضٍ عنه، ومقدرٌ ما هـو فيه. ضبطته متلبسًـا بدمـعٍ غزير، ونجـوى عميقة في إحدى الليالي، قبيل وفاته بأيام قليلة. سـمعته يقول: "انت عالم وشـاهد إني باحبك، وإني كنت أتمنى أصلي والتزم، لكن أديك شايف تعبـي، مش محتاج أقول لك. أشـهد أن لا إلـه إلا اللّه وأن محمدًا رسـول اللّه". تراجعت خطوات إلى الوراء وتركته ينفرد بقدسـية الموقف.

أوقن أن اللّه موجود، يشـهد كل ما نفعل، لكني أتعامل مع وجوده بالشـكل الذي يرضيني. يساعدني في كل موقف أبتهل إليـه فيـه بالدعاء، حين يصـل يقيني فيه إلى المنتهى أكتشـف أن كل مـا أتمنـاه في تلك اللحظة يتحقـق، وحين يتزعزع يقيني بنسـبة تأتـي الإجابة بنفس درجـة التزعزع. انتمائي إلى الإسـلام كدين ليس انتماءً وراثيًا وإن عجزت أمام بعض الآيات القرآنية، وشعرت تجاهها بالرفض، أحاول أن أجد بداخلي تفسيرًا يهدئني، وحيـن يرهقنـي عقلي أستسـلم قائلة: "بالتأكيـد هناك حكمة مـا لا أدركهـا". انتمائي رضا ويقين وليس طائفيـة، وكثيرًا ما أتسـاءل بداخلي هل كانت مهمتي سـتصبح أشـق لو أنني ولدت على دينٍ آخر؟! ودائمًا أصارح نفسـي أنها بالفعل كانت ستصير أصعب. وأنا في الرابعة والعشـرين مـن عمري كنت أعلِّم طلاب

المرحلة الإعدادية، وكان ضمن تلامذتي ولدٌ وحيد مسيحي الديانة، كان صديقي ويحبني كأستاذته، طلبت منه نسخة من الكتاب المقدَّس فكانت معي في اليوم التالي. رحت أقرأ بشغف، استطعت أن أستوعب بعض الحكايات الأساسية في حياتنا الأولى. قصة الخلق، وبعض توابعها المذكورة ذاتها في القرآن بصياغات أخرى. ربما تطابق الكتابان في كثيرٍ من التفاصيل، وكلاهما سكت عن بعض ما ورد في الآخر، لكن في كل الحالات لا أذكر أنني قرأت شيئًا مهمًا في أحد الكتابين يعارض ما ورد بالكتاب الآخر (باستثناء التثليث).

وتظل ترافقني قصة لطيفة يوردها الكثيرون كعلامة على تناقض الكتاب المقدس مع القرآن الكريم، حيث ورد في الكتاب المقدس أن الذبيح هو إسحق، ومفسرو القرآن يقولون إن الذبيح هو إسماعيل، لكنني حين قرأت القرآن مرارًا لم أجد أبدًا ما يفيد أن إسماعيل هو الذبيح، بل إن الآيات التي وردت فيها قصة الذبح كان المذكور بعدها مباشرة إسحق، فمن أين جاؤوا بأن الذبيح هو إسماعيل؟! لا أدري. ربما أنا بحاجة إلى مراجعة كتب التفسير حتى أصل إلى أسباب ذلك الترجيح الواصل إلى يقين البعض، وإن كنت أومن أن كل التفاسير لا تزيد عن كونها اجتهادًا لأصحابها، فماذا يملك هؤلاء أكثر مما يمكن أن يملكه أي شخص في هذا العصر وفي كل عصر؟!

حين أترك العنان لأفكاري تأخذني صوب عوالم كثيرة متشابكة، وأحيانًا يكون أحدها بعيدًا تمامًا، ربما عن الواقع

وعـن الخيـال وعـن هـذا الحاجـز الأرضـي للأحـلام والأفكار والتخيلات!

❖ ❖ ❖

حين تكتسـي أشـجار الفواكه بثمارها الطازجة أشعر أنني مـا زلت قادرة على العطاء كل فترة.. لماذا لا ندرك أن للإنسـان مواسم كأشجار الفواكه تمامًا؟!

❖ ❖ ❖

بما أنني محجبة فاهتمامي بحجابي كاهتمام صديقاتي غير المحجبات بشـعورهن. أنفق عشـرات الجنيهات على زينة حجابي شـهريًا، ربما أكثر مما تنفقه بعضهن على "كوفرة" شـعورهن. أختـار ألوانـي بعناية شـديدة، وأفضِّـل مـا يتوافـق مع بشـرتي منهـا، أكثر الألوان مناسـبة لوجهي الأحمر والـروز والبرتقالي والتركـواز والبنفسـجي، هـذه الألـوان تتفاعـل مع لـون أعيني فتشعرني أنني مشرقة، وأستطيع أن أضفي ثقتي على من حولي.

نعم، ثقة المرأة في نفسها تتسرَّب إلى المحيطين، تلك حقيقة حياتيـة، أنني لـم أفكر يومًا أن أتخلَّى عـن حجابي، ليس فقط لتلك الأزمة التي مر بها شعري، بل السبب الأوقع هو تربيتي ذات الخلفيـة الاجتماعيـة المحافظـة أكثر منها تديُّنًا، عبر سـنوات عمري التي مضت جرَّبت كل أشـكال الحجاب، من الإيشارب المثلث مـرورًا بالخمار المخيط والخمار اللف والإسـدال إلى أن اقتنعت بغطاء رأس عادي يغطي شعري ورقبتي وجزءًا من صدري أحيانـًا. بعد ذلـك الجدل الدائر حول عدم وجـود نص في القرآن

يثبت فرضية الحجاب لم أجرؤ أن أنزعه، ليس لأنني لم أجرؤ على مواجهة المجتمع، بل لأن شيئًا بداخلي رفض الفكرة حين استفتيتُ قلبي.

ربما العادة جعلتني أرى ستري في وجود الحجاب، وربما لأنني أرى نفسي في المرآة مع عدم وجوده أقل تألقًا.

في الصباح وأنا أرتدي ملابسي قرَّرت أن أختار درجات البرتقالي، حالتي اليوم تتطابق مع البرتقاليات، وأشعر ربما للمرة الأولى بعد حالة الخواء الروحي التي تعرضت لها أن تفاعلي مع الحياة قد عاد إلى بعض سيرته الأولى، ربما لدم الحيض الذي يعاودني للمرة الأولى بعد الإجهاض دورٌ في ذلك، فهل هو دليلٌ على براءة رحمي من أية آثار باقية لهذا الجنين الذي ما زال ارتباطي به في أفكاري ينغِّص عليَّ أي محاولة للتعافي؟؟

لتلك الأيام من كل شهر وطأة ثقيلة. أشعر أن أخرى تتلبَّسني، وليست هي تلك البلاستيكية التي أراقبها من رقعتي المدورة، بل هي أنثى متوترة، متحفِّزة، تترقَّب أي فرصة لإطلاق ثورتها المكبوتة، وتتحفَّز ضد أي شخص يستثير أعصابها التالفة أصلًا، وربما تلك المرة ما زاد في عصبيتي أن كل أحداث الشهرين الماضيين تحاصرني في كل قطرة دم تنزف من فم شيطاني.

ما زلت أشعر بالفتور وعدم الرغبة في الآخر، وأولهم أنت. بعد إجرائي الجراحة بأيام كنت أشعر أن حياتي مستحيلة دونك، لكنني مع عدم اهتمامك لشأني بدأت أفتر تدريجيًا وتتحوَّل رغبتي فيك إلى ذكرى كذكرى تشبُّثي بجنيني منك. كم

عشقت هذا الطفل، وكم ردَّدت ذلك أمامك وفيما بيني وبيني، لكنك تظاهرت بالبرود.

نعم، أحاول أن أغافل الأيام التي تصر على تجريف كل بقية من أمل في أرواحنا البائسة! وأقنع نفسي أنني بدأت أمارس حياتي في طبيعية، وإن كان هذا كلامًا أصدِّره للاستهلاك المجتمعي، لا بد أن تسكنني القناعة بأنني على ما يرام لأستطيع تصديرها إلى العالم من حولي، فأعتلي رقعتي المدورة وأُقنِعُني بأنني تـ..عـ..ا..فـ..يـ..ت. لا تطاوعني الكيبورد على دق حروف المفردة، لا أستطيع أن ألملم قناعتي بالتعافي فعلاً، روحي مرهقة والندوب تزداد.. لكنني أرفض التسليم باليأس.

فقدان الثقة يربك تصرفاتي مع الآخرين، ربما من واجبي أن أبتعد تمامًا عن إقامة أي علاقات إنسانية تلك الفترة، فأنا متهرِّئة الروح حقًا. لست مؤهلة للتعامل مع البشر، ولا أدرك كنه أهدافي القريبة وليست لديَّ أي خطة طريق للأعوام القليلة القادمة، ولا حتى الأيام، وهل يضمن أيُّنا أن يحيا ليوم آخر؟!

❖ ❖ ❖

في طريقي من البيت إلى محطة المترو استفزني مشهد كم أثار أعصابي ووتَّرني طوال اليوم؛ أشلاء قطة مدهوسة تحت عجلات السيارات المارة وأحشاؤها مهروسة بمسافة نصف متر، رغم أنه طريق بطيء، وجزء من أمعائها الدقيقة يعلق بإطار السيارات المارة ثم يتهاوى على الرصيف.

ماذا لو أن مكان تلك القطة المسكينة إنسانًا؟ كثيرًا ما

صرت أسمع عن تفجُّر قنبلة بدائية الصنع في أحد الأماكن المزدحمة بقلب القاهرة وتسبُّبها في موت إنسان تفتت لحمه، كيف لقلبي الضعيف أن يحتمل رؤية هذا؟ وما بالي بمن يقع عليه هذا الفعل هو نفسه؟! كيف يشعر حين تتفتَّت أعضاؤه هكذا كتلك القطة، ومتى تغادره الروح؟!

حكت لي صديقة عن ذلك الجار الذي كان حاضرًا فض اعتصام رابعة العدوية وفُقد، وظل أخوه التوأم يبحث عنه حيًا أو ميتًا، ورأي بعينيه جثثًا تكاد تكون متفحِّمة، وأخرى معجونة أشلاؤها وملامحها مطموسة كتلك القطة التي رأيتها في الصباح، وأشعر منذ حينها بالغثيان، يقسم الأخ - حسب رواية صديقتي - أن هناك جثة توقَّف أمامها خمس مرات، ولم يتعرَّف ملامحها من فرط التشوُّهات التي تسبَّب فيها حرقها، وبعد شهرين اكتشفوا في المشرحة أن تلك الجثة هي جثة الأخ المفقود فوقف أخوه يعاتبه: "مش كنت تقول لي ان انت؟ سايبني دايخ عليك وكل شوية أعدي من جنبك وماعرفكش!".

ربما صار واقع القاهرة أسود، ولكن كيف تكون الخواتيم؟ لا يمكن التكهن بالأمر!

❖ ❖ ❖

(٩)

فـي إحـدى زيارات أختي لابنها مهند أرسـل إليَّ برسـالة رفقة أخته، كنت أقرؤها كمن يتشـمَّم عبيـر محبوبه بين حروفها، كان كعادتـه يرسـل النـكات السـاخرة، لكنهـا تلـك المرة نكاتٌ مُرَّة، تعكس مدى المعاناة التي يحياها منذ أودع الحبس الاحتياطـي، وفي كل جلسـة يؤجـل القاضي الجلسـة على ذمة القضية!

أخبرنـي أن مـن أصعب اللحظـات التي يمر بها هـي تلك التي يضطر فيها إلى الكتابة لنا، لكنه يصر على أن أيامه بالمعتقل ليسـت ضائعـة، وأن تلـك قناعته الآن بعـد أن اقتـرب من حاجز الشـهر التاسـع، ثمانية أشـهر وعدة أيام لم يرَ فيها الحياة خارج المعتقـل، وإن كانـت كل الأخبار تصل إليـه هناك من مصادر عديدة متغايرة.

ولا شـيء يـأكل نفسـيته كرؤية أمـه تذبل أكثـر في كل زيارة عن سـابقتها، وهو يقف عاجزًا عن أي شـيء ليس سـوى أن تـرى ضحكته مبتهجًا، تلـك الضحكة التي يجتهد في أن تبدو حقيقيـة وغيـر مفتعلة لتقنَـع أنه بخير، ولكـن كيف هذا وهي تقرأ ملامحه جيدًا وتعرف أن ضياع العام الدراسـي بالنسـبة إليه ضربة قاضية، وإن لم تكن تعلم أن هذا الأمر أمام ما رأى وعرف في المعتقل لهو أهون الأشياء!

لـم يكـن مهنـد صاحب قضيـة سياسـية ذات يـوم، لكنني أثـق الآن أنــه ابن تلك التجربة المرة، ولن ينسـى أبـدًا أنه وللمرة الأولـى يدفع ثمـن رأيه وقراره الذي ربما كان متسـرعًا لحظتها لكنـه الآن يـراه أصوب قـرار اتخذه في حياته، بعـد تلك الحياة التي عاشـها في المعتقل وهؤلاء الذيـن التقاهم، والأحداث التي فُرضت عليه لأشهر ممتدة.

الحيـاة بعيون معتقل منعته ظـروف اعتقاله من أداء امتحانات العـام الدراسـي بكلية عمليـة أهـم شـيء فيهـا الرؤيـة العينية والمعاملة المباشـرة مع المعدَّات والأجهزة والمشروعات، ليست أفضـل منهـا بعيـون كلب أجـرب كان يطارد شـبح جيفة منتنة فانزلق إلى النهر ولم يستطع الصعود منه بعدها أبدًا.

صـار يقنع نفسـه أن الحياة بين جـدران المعتقـل أفضل منها بين جدران الوطن، ويشعر أنه بعد احتسابه على جماعة الإخوان المسـلمين لن يسـتطيع أن يحيا حياة طبيعية إن تم الإفراج عنه، وأنه سـوف يدفع دومًـا ثمن جريمة لم يرتكبهـا في نظر البعض وثمـن شـرف لا يدعيـه فـي نظر آخريـن، مختتمًـا رسـالته بأنه سيصرخ فيهم "اسمي مهند.. ولست إخوانيًا!".

❖ ❖ ❖

(١٠)

كنت أعبر من سلَّم محطة مترو الجيزة المغلقة منذ أغسطس الماضي.. حبلى في شهرها الثامن بالعناكب وروائح بول المارة ومخلَّفات البيوت المحيطة.. كل التفاصيل المتوافرة لقبر عتيق، وأكثر ما يشغلني هو كيف تتم هزيمة كل ذلك حين تعود المحطة إلى العمل!

❖ ❖ ❖

اليوم كنت جالسة بمقهى زهرة البستان، أول مقهى جلست به أواخر القرن الماضي، ليس للمكان طعمه القديم، ولا ازدحامه الذي كان، ربما لأن معظم رواده تلك الأيام يبتلعهم معرض الكتاب، رغم ظروف القاهرة الحالية، بالتأكيد كل شيء حركته بطيئة، وحالة الترقُّب هي سيدة الموقف.

فجأة شعرت برغبة شديدة في أن أدخن سيجارة، أخذت واحدة من صديقي الجالس معي، لكنني شعرت بتعاسة لحظية لأنها لم تكن "روثمان أزرق"؛ دخانك الذي اعتدت رائحته رغم عدم مشاركتي إياك فيه إلا مرةً وحيدة، حين قمنا بتفريغ السيجارة وحشوناها بقطع الحشيش الصغيرة ممزوجة بدخان التبغ بعد أن سخَّنتَها وفتَّتَّها أنت، وتولَّيت أنا عنك مهمة حشوها مرة أخرى، أحيانًا أشعر باشتياقي إلى تلك الرائحة، بالتأكيد لا أعني رائحة دخان الروثمان، بل رائحتك ممزوجة بدخان التبغ والحشيش.

لا زلت حين تعاودني الرغبة ويصرخ فم شيطاني أستدعيك وحدك، دون شريك، لا تحركني سوى لمساتك، لا تستهويني سوى أنفاسك الساخنة على خديَّ حين تتماس شفاهنا في قبلة سريعة تستغرق جزءًا وحيدًا من اللحظة، ثم توزعها على خديَّ وبين عينيَّ وهناك.. في مناطق متفرقة من صدري.

وما رفضي لقاءك بعد تخلُّصي المجبَر من ابنك الذي كنت أحمله سوى خيط سرابٍ تبخَّر مع أول لحظة احتياج اجتاحتني بعد تعافي جسدي من أثر الإجهاض، وما حبي ذلك الولد سوى جزءٍ من حبي إياك!

❖ ❖ ❖

اللعنة على مشدِّ الصدر الذي يحيل كتفيَّ إلى أخاديد، كسوط جلادٍ متمرِّن يعرف أين يوجِّه ضربته، أول ما أتخلَّص منه عقب عودتي إلى البيت، كم يثقل كتفيَّ. أحيانًا أشعر بوخزة أسفل نهدي الأيسر. في ذلك المكان المتعارف على أنه القلب، لكنني مقتنعة أن قلبي أعلى وسط ثدييَّ لا أسفل أيسرهما. الغريب أنني حين أتخلَّص من مشد صدري يختفي ذلك الوخز فورًا، ولكنني بالتأكيد لا أستطيع الخروج ولا التحرك دونه، ربما فات أوان أن أدَّعي الحفاظ على شكل صدري، فبعد الحمل والرضاعة يتغيَّر شكل الثديين تلقائيًا، ولكن ما لاحظته بعد هذا الحمل الذي فقدته أن صدري كبر حجمه وانتفخ بشكل ملحوظ، ورغم نزول الحمل فلم ينزل حجم صدري، ولم تقل انتفاخته، بل ولم تنَمْ حلمتاه النافرتان طوال

الوقـت، فصار يزعجني أن أفكر مجرد التفكير أن أتخلَّى عن مشد يقيِّد جموحه وربما يكسر صوت احتياجه.

للميـدان حيـن أعبـره مسـرعةً للحـاق بموعد صديقـي نفس شـكل صدري المرهق، وربما المقهـور، بعد الإجهاض، ولتلك الكتل الخرسـانية التي تغلـق مداخل التقاطعات الرئيسـة نفس مفعول مشدَّات الصدر السخيف في لحم أكتافي!

❖ ❖ ❖

(١١)

فـي الصبـاح وأنا أحمِّم صغيرتي قالت لي "يا ماما فيه واوا في البيبي".. لاحظت احمـرارًا زائدًا في فرجها الصغير، فدهنته لها بكريـم مرطـب، ورأيت تلك الأخرى القابعة فـي رقعتي المدورة تقـول لـي "علـى الأقل تسـتطيعين حمايـة ابنتك من ذلك التشـوُّه النفسـي الـذي تسـبَّبوا لكِ فيـه، معتقديـن أنهم هكـذا يقلِّلون شهوتك، وهم في الواقع أشعلوها نارًا، الختان الذي يزعمون أنه يقلِّل من رغبة المرأة يجعل فم شيطانها كبندول ساعة لا يكفُّ أبـدًا عن الاهتزاز، ودائمًا يرغب، ومرات وصوله أقل كثيرًا من تلك التي لم تتعرَّض للختان، ومهما وصل فهو يرغب في المزيد، والمزيـد، فمخطـئٌ مـن يظـن أن ختان المـرأة يحـل أي جزءٍ من المشكلة، بل هو يعقِّدها أكثر.

عرفـت صديقـات غيـر مختونـات، ومعـدل شـهوتهن طبيعي جدًا، أو هو على الأقل لا يصل إلى نصف شـهوتي المرعبة، رغم ختاني، ربما منحتني ربة الحظ طبيبًا لم يسـتأصل سـوى زيادات تافهة كل ما تسـبَّبت فيه هو تأخر وصولي إلى الأورجازم، حتى إنني صرت بحاجة إلى رجلٍ بمواصفات خاصة جدًا كي يشبعني ويرضي شـراهتي، ولكـن مع هذا يكفي وقع الكلمة السـيئ علـى النفس، وأن تملأني دائمًا فكرة أن هناك شـيئًا ما يختلف عن أولئك النسـوة اللاتي لم يتعرَّضن لهذا الفعل، وأن اسـتئصالاً

ولـو بسـيطًا ، أو تشـوهًا غيـر ملحوظ قـد أصاب ذلـك المكان الأكثر حساسية في جسدي!

❖ ❖ ❖

آخر ما كنت أتوقعه أن أجلس هناك في ركن رقعتي المدورة.. وأتابـع ما تكتبـه على صفحتك عن تلك المرأة التي تسـبَّبت في دمـارك، حتى إنك بُحت كثيرًا ونزفـت حقائق لم يكن ليعلمها أحد، ولا حتى أنا.

كم أشـفق عليك الآن.. رغم أنني لا أراك ملاكًا، ولا مُغرَّرًا بـك مثلما تحـاول أن توصل إلـى مـن يقرؤونك، ربمـا للجرح أن يجعلنـا أحيانًـا نهـذي، ولكـن مـا لا ينبغي أن نصـر عليه هو أن نفضـح مـا حدث خلف الأبـواب التي كانت يومًا مـا مغلقة، فما حدث في سنوات زواجك ليس حقًا لك وحدك.

"الأخلاق متبعترة فى الشـوارع.. اللي يمد إيده ويلحق بس قول يا نِفس.. المشكلة إن مفيش نِفس، أو ممكن نروح الأوبرا بقى نتعلم الأخلاق هناك".

❖ ❖ ❖

نعـم، أتابـع هذيانك بسـطور غير متزنة فـي أحايين كثيرة، ليوميـن هـو نزف متصـل كنت أعـي تمامًا أنـك تتقيـؤه متلذِّذًا بساديتك مع تلك الزوجة المسكينة التي قرِّرتَ أن تعلق انفصالك عنها على رغبة محمومة في التشـفِّي تتملكُّك طيلة عام لا أدري كيف انقضى هكذا بتلك البساطة؟!

❖ ❖ ❖

أحمد الذي عرفت معه أن هناك رجالاً يتسمون بالنبل ما زالوا في كوكبنا الأرضي اكتشف مؤخرًا أنه مصاب بفيروس سي ودخل في قصة طويلة مع المرض رافقتُه جزءًا من تفاصيلها.

كثيرًا ما أشعر أنه لن يستمر كثيرًا في تلك المعركة المحسومة قبلاً، وهو يكابر ما زال.. ترى أليس من حق مريض الكبد أن يحلم بحياة هادئة مستقرة لعدد من السنوات لمجرد أن هذا المرض يحتاج إلى ثراء وافر للدخول في متاهة زرع كبد وما تحتاجه تلك العملية من طقوس معينة لا تتوافر سوى لمن لا يزيدون عن ألف شخص في هذا الوطن العجوز الكافر؟!

سمعت مؤخرًا أن هناك أدوية أمريكية ستغزو السوق المصري ستؤثر بالإيجاب في حاملي هذا الفيروس اللعين، ونسبة احتمالات الشفاء في وجود تلك الأدوية ستتضاعف. وهل شُفِي أحد من حملة هذا الفيروس من قبل؟!

❖ ❖ ❖

كلما رأيت امرأة حبلى دعوت لها ولجنينها بالسلامة بظهر الغيب.. وتذكرت جنيني الذي كنتَ سببًا في حرماني منه، لو كنت احتفظت به لوصلت إلى شهري السابع تلك الأيام..

ليس لنا شيء في أنفسنا في كثير من الأحايين، وانقطاعك عني لدرجة تغيير أرقام هواتفك ينبئني أن صديقتي هي من أجادت قراءتك لا أنا، وأن قناع الإنسانية الذي كسيتك إياه كان الوهم الأكبر في حياتي..

لست أدري لو لم يكن أحمد معي في إجراءات ذلك الإجهاض

المر فإلام كنت سأصل؟!

حياتنا الخاصة مزيج من القهر والعبث، ووطأة الإحساس بالقهر.. أين العدالة في احتمال المرأة وحدها عواقب كل علاقة بالرجل؟ سواء كانت زواجًا فاشلاً أم علاقة مفتوحة أو حتى علاقة عابرة؟ ثم نتشدَّق بأن هناك مساواة؟ أين هي؟

الأمر يتفاقم بالنسبة إلى آلام أسناني التي صارت متكرِّرة، فما عدت أستطيع المضغ من شدة التهرؤ في لثتي التي بدأت تنزف أحيانًا، وتلك البثور التي بدأت تظهر عيها من الخارج أو تلك التي يشعر بها لساني من الداخل والنزف الذي صار شبه متواصل، الهواجس تطل برأسها متحيِّنة فرصتها الذهبية في الانقضاض عليَّ.. ترى تتحقَّق تلك النبوءة السوداء؟!

❖ ❖ ❖

(١٢)

أرهقتني المدن المتحوِّلة.. أرهقتني أقنعتي التي كنت أتبادل ارتداءها عند بوابات كل مدينة أهرب إليها.. كنت أهرب في الحقيقة دون أن أعترف ممَّ أهرب! والذي اكتشفته مؤخرًا أن أقنعتي التي كنت أبدل بعضًا منها عن الآخر كانت محاولة فاشلة للهروب من نفسي نفسها، وكأنني أدور حول ذاتي كل ذلك الوقت مخلِّفًا لا شيء بعد أن أفرَّ إلى مدينة أخرى.

الآن أشعر أنكِ حاضرة لم أفلح في نسيانك، وأعترف أنك المرأة الوحيدة التي امتزج طعمها بين ذراعيَّ بطعم النيكوتين الذي لم تكن تضارعه عندي متعة.

لاحتوائك إياي مذاقٌ لم أعتده مع أنثى من قبل، دائمًا كنَّ ينعتنني بالحنون، لكنني نهلت من حنانك أضعاف الأضعاف.

لم يُنسِني فشل تجربة زواجي الأخيرة، كسابقاتها، طعم الدفء ومعنى الأمان حين أكون معكِ.. ولكنني مضطر إلى تحميلك مسؤولية ابتعادي عنك كاملة، كم حذَّرتك ألا تحملي.. فلماذا فعلتِ؟!

كان الأمل موصولاً بيننا بلقاء حتى تلك اللحظة التي ألقيتِ فيها بقنبلة الحمل أمامي.. لم أكن أحسب لذلك أبدًا في هذا التوقيت الذي أنا متهم فيه بعدم القدرة على الإنجاب، والتشكيك في قدراتي الجنسية، واتهامي بالعقم! هكذا الحياة حين تعاند

شخصًا مثلي متعوسًا بالفطرة، وتسلبه كل الأشياء في وقت قياسي..

كان من الممكن أن أقف إلى جانبك وأقرِّر الاحتفاظ بالجنين، لكنني كالعادة اخترت أن أكون سلبيًا، لم أكن أعرف بعد ماهية مشاعري نحوك، لم أكن أشعر أنني سأندم على فقدانك أشد الندم، وأنني سأصير شخصًا سيئ الحظ تعيسًا إلى هذا الحد بعد غيابك من حياتي.

بعد أن سقطت البلد مرة أخرى في حجر العسكر تئن على صفيح ساخن، والأحداث تتوالى، ترقية الفريق السيسي إلى مشير، ثم إعلانه الاستقالة، ثم ترشحه لرئاسة الجمهورية، مع ملاحظة عدم وصول آخر باستثناء حمدين صباحي للمنافسة- إلى المباراة النهائية لحسم انتخابات الرئاسة، وكأن كل شيء معدٌّ سلفًا، وكأن القرار المتفق عليه من العامة والخاصة هو أن يتولى ذلك الرجل رئاسة البلاد، بصرف النظر عن حرب قادمة، أو ظروف داخلية صعبة يمكن أن تمر بها البلاد.

وقد مات كمال والثورة لم تكتمل.. كان ضمن قلَّة توقَّعوا أن تفشل تلك الثورة، لأنها لم تقم على أسس راسخة، ولا على مبادئ حقيقية.. خفتت تلك الضجة التي كانت ترجُّ جدران المقهى القابع في بدروم مبنى عتيق في شارع عبد الحميد سعيد، لم يكن يجلس إلا فيه، وعلى عكس ما ظن الجميع لم يرد المقهى أيام الثورة، وكان يرى ما يحدث محض هراء، و"هوجة" لن تلبث أن تنفض..

قالها لي في إحدى محادثاتنا الفيسبوكية.. "اسمع مني..

معندناش فصيل منظم غير الإخوان، وبكرة الناس هتلطم عشان الجيش يلحقها".. كان أبعد نظرًا من الجميع، وربما لهذا رحل!!

كان كمال شجاعًا، ومجاهرًا بآرائه الدينية والسياسية، فكان دائمًا أمام عينيَّ قائدًا وزعيمًا، إلا أنه فهم اللعبة مبكرًا فلم يرهق نفسه ولم يتكبَّد مشقة الوقوف في الميادين وإبداء الاعتراض لأنه كان موقنًا أن الجيش لن يترك الدولة تسقط وإن تفرق أبناؤها المفتقرون إلى الوعي السياسي، فراح يدير مقاليد الأمور وكأن كل شيء على ما يرام، ولن أنسى أنه كان ذات يوم ينعم بالجنة الأرضية بين يدي تلك المرأة!

❖ ❖ ❖

هناك أوقات أشعر فيها أنني أحاول البعد عن انشغالي بذاتي كي لا أصاب بالإحباط وأكتئب لأنني لم أعِش ظروفًا اخترتها، وكل ما حييته حتى الآن هو حاصل جمع الظروف والآخرين الذين دخلوا حياتي دون قصد أحيانًا.

الشيء الوحيد الذي أراني مصرًا على إكماله هو الانتقام من كل من يحاول أن ينال من هدأتي أو أماني النفسي، كتلك المرأة التي آويتها لأكثر من عام ومنحتها اسمي، وهي لم تكن تستحق أكثر من مروري العابر بها، ولذا لم أطلقها رسميًا بعد، ولن أفعل حتى أؤدبها هي وأسرتها بالكامل جزاء ما تسبَّبوا لي فيه من جراح عميقة من الصعب شفاؤها.

لماذا أنا للمرة الأولى أشعر أن هناك أنثى تحتلني؟! أتعلمين

أنك من ترافقينني رحلة تخيلاتي تلك الأيام؟! لا تلك الزوجة الخرقاء، ولا أيًا من نسائي اللواتي كثيرًا ما قرأت غيرةً في عيونك منهن، وأنا جالس إلى جوارك على كنبة الأنتريه في استقبال شقتك، كنت أعشق هذا الجو.. لم أنم فعلاً بهذا العمق في مكان سوى فراشك..

كل هذا الأمان الذي كنت أشعر به في بيتك لم، وربما لن أراه في حياتي سوى معكِ، سأعاود الاتصال بك، وسأظل أبحث عنك حتى أصل إليك.. أنا حقًا لا أستطيع العيش دونك. لا بد أن أعترف الآن. لن أيأس من الوصول إليك.

❖ ❖ ❖

(١٣)

المعتقـل... حاصل جمع حيوات لأسـر بعـدد المعتقلين، كلٌّ منهم يحمل على كتفه أشـجانه، وأشجان كل فرد في الزنزانة الكبيـرة التـي تجمعهم، ومـع تنقلهم من زنزانـة إلى أخرى صار كلٌّ منهم يجمع تاريخ المعتقلين جميعًا، ومجموعة مسجد الفتح هي مجموعة لها طابع مختلف بعض الشـيء عن باقي المعتقلين، فهـذه المجموعة تم القبض عليها من داخل المسـجد، فكأنهم رأس خلية مدبرة أو عصابة قُبض عليها متلبسة بجريمة قتل، لذا فالتعامل مع إجراءات القضية بطيء بشـكل لافت للنظر، فعدد مـن المعتقلين على ذمة أحداث أخرى كفض اعتصام النهضة أو رابعـة العدويـة تم إخلاء سـبيلهم أو خروجهم علـى ذمة القضية، لكـن هـؤلاء فلم يخـرج منهم أحـد، ولا أظن أن الأمر سـينتهي بسرعة، رغم يقيني من أن الحرية آتية لا ريب فيها.

وراء كلٍّ منهم حكاية تستحق التسجيل، فمنهم من ودَّع أمه فـي تلك البلـدة البعيدة وأتاه نبـأ وفاتها وهـو بالمعتقل، أحدهم كان يخـرج إلـى الاعتصامـات هروبًا من جو التوتـر الذي تحياه أمـه بعـد انفصال أبيه عنهـا، وكيف أن اعتقاله قد جمع شـمل الأبويـن، وجعلهما يعلوان فوق كل المشـكلات بينهما من أجل وحيدهمـا، وكيف أن الأب وافته المنية على باب المعتقل حيث كان ينتظـر دوره لزيارة ابنه! وكيف لـم يرَ أحدهما الآخر رغم

فاصل الخطوات بينهما. فليس مسموحًا للمعتقلين أن يخطو أحدهم خطوة واحدة خارج أبواب المعتقل، وليس للميت أن يخطو خطوة واحدة إلى داخل المعتقل!

أحدهم كان يرتِّب للزواج بعد أسبوع من يوم الأحداث، وحين علمت خطيبته باعتقاله أصيبت بجلطة ظلت تُعالج من آثارها لأكثر من شهرين، ولم تتمكن من زيارته على أثر مرضها!

مئات من القصص التي يغلفها الألم والأسى، ومن يسمع؟! لقد أسمعت لو ناديت حيًا، وقد تتحول الأشهر إلى سنوات، فمن يدري!

❖ ❖ ❖

(١٤)

بثعبانيــة طازجــة النعومــة احتويته بيــن ذراعــيَّ، ضممته إليَّ أكثــر، غبنا فــي حالة التحــام خلفيتهــا تأوهات غنجــي ودلالي عليه، معًا أطلقنا صرخات الانتشــاء والشبع دون أن يشعر مددت يدي تحت الوســادة أمســكت بذلك الخنجر المســنون، برازيلي الصنــع، والذي اشــتريته مؤخرًا من ذلــك المتجر الذي يبيع كل شــيء.. مرَّرتــه علــى رقبته مــن اليمين إلــى اليســار وبالعكس، بحســم، وفي لحظات سريعة وســط نظراته الذاهلة المصعوقة.. لم ينتبه ليقاوم، فقد كانت حركتي أسرع مائة مرة من رد فعل ذلك الكائن السلحفائي طوال حياته!

انفصل رأســه عــن جســده تمامًا ونافــورة من الدمــاء الثخينة يتصاعد بخارها أمام عينيَّ وأنا أشــعر بنشــوة لا تقل عن انتشائي وهو يقذف بداخلي آخر قطرات روحه.

كم عشقت ذلك الرجل الهادئ، كم أشعلتني وقاحة عينيه.. كم لذَّ لي صوته ومشــاغباته معي ونحن عاريان تمامًا بالفراش.. كان يعشــق عرينا الجســدي والنفســي معًا.. كم كان يذوِّبني ويعشق ذوباني فيه!

نعم تلك هي المرة الوحيدة بعد أن فقدت جنيني التي ســمحت لــه بالاقتــراب فيها مني، بل إنني من أغويتــه باللقاء.. نعم كانت بداخلي رغبة ظمئة في الانتقام منه، لأنه حرمني من أغلى إحساس

من الممكن أن تحياه امرأة، كما حرَّم عليَّ لذَّة التقائه، فحتى وأنا أنتشي معه شوَّشت عليَّ كثيرًا لذَّتي، صورة وليدي الذي لم يأتِ، وطاردتني، لكنَّ هدفي وإصراري على الوصول إليه جعلاني أصر على أن أكمل نشوتي لمرةٍ أخيرة.

❖ ❖ ❖

نعم لم ينتبني الذهول ولا الخوف حين رحت أقطع كل شق من جسدك إلى مجموعة من القطع التي يسهل حملها كي أفلح في التخلُّص منها.

قرَّرت ألا يجتمع جسدك أبدًا لمرة أخرى فيضاجع أخرى لن تكونني، ورحت أفكر أين سأواري سوأتك، فاهتديت إلى أن أطعمك لكل الأسماك النيلية المحتملة كي تذوق لحمك المهضوم كل أنثى عاشرتها يومًا ما، وربما كنت أنا أيضًا كذلك حين أطلب البلطي المقلي من ذلك المحل الشهير بأسماكه النيلية الطازجة.

لم أكن أدري ماذا أصنع بذلك الجسد الممدَّد أمامي غارقًا في بركة من دمائه الطازجة، لكنني كنت أبرد من الثلج.. لم يأخذني اندهاش، ولم توتِّرني احتمالات.. فلم أكن لأسمح بأي احتمالات في هذا التوقيت.. لم أكن بحاجة إلى نزع أية ملابس لأنك كنت عاريًا، وكنت...

أمسكت برأسك كثيفة الشعر من أذنيك الطويلتين نسبيًا حين أقارنهما بأذنيَّ المستديرتين قليلاً.. وضعتها في كيس بلاستيكي أسود، وقرَّرت أن أتركها إلى المرحلة الأخيرة..

بنفس الخنجر الذي فصلت به رأسك رحت أفتح خطًا طوليًا من منتصف الرقبة وحتى عانتك.. كان الخنجر رغم قصر سلاحه حادًا ونافذًا.. كان الخط الطولي ذا قادرًا على النفاذ إلى الظهر في معظم الأماكن.. ولم يكن أمامي سوى أن أقلب جسدك على بطنك كي أكمل نفاذ الخنجر إلى الظهر، فصار أمامي نصفان طوليان، كنت أود أن أنزع الجلد وحده لكنني رأيت أن هذا سيستغرق وقتًا وما زال أمامي أكثر من مهمة بانتظار أن تُنجَز.. فعليَّ أن أتخلص من كل الأشياء بسرعة فائقة.. الجسد.. والملاءات البيضاء التي صبغها الدم، بل وكيس المرتبة الطبية التي أستخدمها للنوم وتلك الخطوة الأصعب لأن المرتبة جد ثقيلة!

استطعت أن أقطع النصفين الطوليين بالعرض إلى ست قطع فصار أمامي اثنتا عشرة قطعة لحم سوى الرأس...

كان بداخلي عزمٌ شديد أن أطهو شيئًا من لحمك لكنني أقلعت عن ذلك لتأفُّفي من رائحة جسدك بعد انتهاء الذبح، فسرعان ما تغيَّرت رائحتك. إذن لا بد من التخلص من كل تلك القطع، بسرعة!

وضعت كل قطعة في كيس بلاستيكي أسود بعد لفها في أوراق جرائد قديمة، كان وزن القطعة الواحدة نحو سبعة كيلوجرامات...

أمامي ثلاث عشرة مرة لأستطيع التخلص من كل الأكياس السوداء، وبسرعة.. على الأكثر قبل صباح اليوم التالي!

ارتديت ملابس ينتشر فيها اللون الأسود كي لا تنم عني بقعة دماء يمكن أن تكون قد انتثرت هنا أو هناك أو على ملابسي..

استطعت أن أحكم إغلاق كل الأكياس البلاستيكية السوداء بحيث تخفي كل معالم محتوياتها.. فقط كنت أخشى رأسك.. بعينيك الجاحظتين وكأنهما تركزان النظر إلى وجهي مثلما كنت تفعل في لقاءاتنا الحميمة حين تمارس الحب معي بعينيك ممارسة لا تقل متعة عن ممارسة الجسد..

لسانك المتدلي من جانب فمك كان هو الممنوع الوحيد في علاقتنا التي سأظل على نفس قناعتي بأنها الأروع في حياتي.. كنت تزعم أنك تخشى رائحة فمك ولا تريد إزعاجي بها لأنك لا تستخدم معجون الأسنان.. وكيف استنتجت أن إحدى إناثك يومًا ما عيَّرتك برائحة فمك فقرَّرت ألا تقبِّل أنثى قبلة تفصيلية مكتفيًا بلثمات صغيرة على ظاهر الشفتين.. وفقط.

وحاولت كثيرًا اقتحام ذلك المحظور ولكن دون جدوى.. كنت دائمًا تفضل أن تطبع لثمات سريعة على خدودي ومناطق متفرقة من جسدي، وكأنك تنثر سكرًا ناعمًا على كعكاتي الباشَّة.

رأسك هي الشيء الوحيد الذي يمكن أن يدل عليك.. لذا قرَّرت بمنتهى الحسم أن تبقى حتى أتخلَّص تمامًا من كل أجزاء جسدك المحفوظة داخل الأكياس البلاستيكية..

لم أخشَ الحر.. فدرجة حرارة غرفتي معتدلة، ولن ينتن لحمك سريعًا.. لا أحب أن تكون آخر ما يتبقَّى منك رائحة منتنة. يومان

فقط كفيلان بالتخلُّص من كل الأكياس حيث النيل القريب جدًّا...

سأجتهد في التخلص من تلك المهمة في أسرع وقت ممكن كي أتفرغ لما يأتي. دقائق وتشرق الشمس.. موعد جيد لبدء الرحلة.

قبل الغروب كنت قد أنهيت المهمة كاملة بمنتهى الثقة.. أحمل في كل يد أحد الأكياس البلاستيكية وأسير حتى أصل إلى أقرب نقطة من النيل.. حيث محطة الأتوبيس النهري وكأنني بانتظار الأتوبيس، وفي حين غفلة أفلتُ الكيس من يدي بين الممشى الخشبي وحافة النهر حيث تلك الدوامة المتدفِّقة والقادرة على ابتلاع شخص كامل لا مجرد قطعة منه.

كانت الرحلة الأخيرة مختلفة، فتلك رأسك يا حبيبي.. رأسك يعني عقلك المدبر.. منبع أفكارك، لا سيما تلك الفكرة التي أملت عليك أن تجبرني على التخلُّص من الكائن الأروع في حياتي.. جنيني منك.

لا زالت رعشة بطني كلما تذكَّرتها تثقب في روحي ندبة أعمق من كل ما سبق في حياتي، وأعمق بالتأكيد من كل ما يأتي.

حملت رأسك في هدوء أحسدني عليه وأحكمت إغلاق الكيس، وقرَّرت أن أتجه إلى مكان بعيد تمامًا عن الأماكن التي ألقيت فيها باقي الأكياس.. وفجأة قفز إلى ذهني أن أذهب إلى أقرب مكان في النيل إلى إقامتك.. كورنيش النيل..

المشـكلة أن محطة الأتوبيس النهري في هذا المكان أكثر ازدحامًا وليست هناك تلك الدوامة التي ستكفل ابتلاع الكيس.. قلت لنفسـي سأسـتقل الأتوبيـس النهري وأجلس فـي أقرب نقطة إلـى الماء حيث أول فرصـة للإلقاء بالكيس، وفي منتصف النهر والأتوبيس ينحرف إلى اليمين ليصير باتجاه المحطة أفلتُّ الكيس من يدي في لحظة دون اكتراث بنظرات كثيرة متسائلة.

تركـت الأتوبيـس بعد وصوله وعدلت عن فكـرة العودة به، وسـرت حتـى أول الطريق السـريع ثم اسـتقللت سـيارة أجرة إلى حيث أقيم.

لم يبقَ سـوى خطوة أخيرة بعـد أن تخلَّصت من كل أجزائك.. آثار دمك المغرقة كل تفاصيل الغرفة.

فتحت باب الشقة وأغلقته خلفي حين دخلت، ومنه إلى غرفتي لأبحث عن طريقة أتخلَّص بها من دمائك على الفراش والملاءات، وربما من بقع متجلِّطة على بعض أثاث الغرفة.

مـا أثـار تعجُّبـي ونقلني مـن حالة الهـدوء والثقـة التي كنت أحياها هو ما رأيت، فالغرفة مرتبة تمامًا ولا أثر لنقطة دم واحدة بالغرفة، مفتاحي معي ولا أثر لدخول أي غريب إلى الشقة، وحتى صديقتي التي كنت أحتفظ بنسخة المفتاح لديها استرددت منها النسـخة قبل يوميـن بحجة أننـي أحتاجها لأن نسـختي ضاعت، فأين ذهبت آثار الدم؟ أين ذهبت القطع المتجلِّطة على الوسادة؟

الوسـادة البيضـاء حين فصلت رأسـك تحوَّلت إلـى بركة من الدماء.. أين تسرب دمك اللزج؟

رحت أتحسَّس مكان وجودك للمرة الأخيرة أو حتى قطرات عرقك على الفراش.. وكأنك لم تكن هنا..

بدأت أتعجَّب.. وتسكنني الهواجس، ولم أكن أحتمل تلك الحالة فخرجت مجددًا.. سرت دون هدف محدَّد.. قررت أن أشتري بعض فطائر البيتزا ربما كان للجوع دوره في اختلاط انفعالاتي.

أكلت في المحل على غير العادة لأمسك بجوعي قبل أن يتوه مجدَّدًا في زحام اليوم ولأستمتع بجبن الموتزاريللا طازجًا على وجه البيتزا.

أنهيت طعامي وارتخاء شديد يحل بجسدي.. فقط أحتاج أن ألقي بنفسي على الفراش.. عدت إلى المنزل.. أدرت المفتاح في ثقب الباب ودخلت.. فتحت باب غرفتي.. هل تركتها مغلقة؟ لا أذكر إن كنت قد أغلقت الباب.. ضغطت زر الكهرباء فأضاءت الغرفة.

رائحة الدم المتخثِّر تملأ الغرفة.. وبقع حمراء مسودَّة تملأ الفراش الأبيض.. وبقع متجلِّطة على درج الكومود الذي فتحته لألتقط منه قطعة من القطن ألف فيها عضوك الذكري وخصيتيك لأنني قرَّرت تحنيطها وعدم إلقائها إلى أسماك النهر،

الآن تذكرت أنني تركتها على الرف العلوي بالثلاجة دون أن ألفَّها بكيس بلاستيكي لأقرر ما سأفعله بها.

كيف في المرة الفائتة لم أعثر على آثار الدماء؟ هل سأبدأ في الهذيان هكذا بتلك السرعة؟

استعدت نشاطي الذي كاد يخبو في محل الفطائر، وقررت أن أضحي بالملاءات البيضاء وأكياس الوسادة المختلطة بالدم فرحت ألملم أطراف الملاءة ووضعت الوسادة بأكملها داخلها وجمعتها كورقة كرنب محشوة بالأرز والبصل..

أحضرت كيسًا بلاستيكيًّا كبيرًا أسود ووضعت فيه الملاءة المحكمة الحشو،

وقرَّرت أن أتركها حتى الصباح ثم أتخلص منها في طريق ذهابي إلى العمل في صباح اليوم التالي، وضعت ملابسك في كيس آخر، لأنها لم تكن شريكة في الحادث فلم يصبها ولا نقطة دم واحدة.. بنطلون جينز كحلي وتي شيرت فئراني اللون وحذاؤك الضخم مقاس ٤٥، وبوكسر أزرق وفانلة بيضاء مصفرة.. هذا كل ما كنت ترتديه، بل وجورب رصاصي اللون، نعم هو هنا تحت الكومود.. جيد أنني انتبهت إليه.

فكرت أن أفضل حل لما أنا فيه أن أترك نفسي لحمام دافئ، وبعد انتهائي من الاستحمام خرجت وأنا ما زلت مشغولة بآخر آثارك في الكيس البلاستيكي الملقى بجوار الباب..

شعرت أنني يجب أن أنام نومًا هادئًا لعدد متصل من الساعات ففتَّشت في درج الكومود عن أي حبوب منوِّمة أو مهدئة فوجدت قرصي موتيفال لا أذكر حتى سبب وجودهما.. تناولتهما معًا، وقرَّرت أن أنام بعيدًا عن غرفتي..

أرحت رأسي على وسادة إسفنجية في كنبة الأنتريه التي كثيرًا ما جلسنا معًا عليها، وكثيرًا ما راودنا الحب عن أنفسنا

فرقصنا رقصات تانجو متعددة عليها..

كنـت أتابعك وأنـت تدوِّن حالاتـك على اللاب تـوب الصغير الخاص بي. لم أخبرك أبدًا أنني ظللت أتابع محادثاتك مع النساء اللائي كنت تحادثهن طوال الوقت.

من تكتب لك "وحشتني" ترد بنفس الكلمة.

من تقول لك "أحبك" تقول لها "أحبك".

كنـت أتألـم رغمًـا عنـي، رغـم عـدم اعترافـي لـك نهائيًّـا بمشـاعري، بدأت أغيب عن الوعي بمفعول المهدئ السريع ربما لأنني لم أعتد تناوله، لم أشعر إلا وأنا أسمع طرقات صغيرة على باب الشقة، فنهضت مسرعة في شبه فقدان ذاكرة..

نظـرت من العين السـحرية فوجدت عامـل النظافة، لم يكن عندي مهمـلات عادية لأتخلص منها فتجاهلـت دقاته المتكررة علـى الباب، ثـم تردَّدت للحظـات هل أعطيه الكيـس المحتوي ملابسك؟ ثم تراجعت.

فتحـت باب غرفتي ودخلـت فوجدت الغرفة مرتبـة، والملاءة البيضاء مفروشة مثلما تركتها مساء اليوم الفائت قبيل أن أنام.

أطلقت نفسي للماء الدافئ تحت الدش، دون أن أسمح لنفسي بالاستسلام لدوامات الأفكار البالية في رأسي.

صوت بكاء طفل رضيع ربما لا يزيد عمره عن أسبوع يتسرَّب إلى أذني بسـرعة وبشـدة، ويتعالـى، فيلقي بي فـي دوامة طفلي الذي كان من المفترض أن أستقبله خلال شهر من الآن.

ترى لو كنت قرَّرت الاحتفاظ به ماذا كنت سأفعل؟

كان مستحيلاً الاعتراف بابن غير شرعي أمام أب وإخوة ذكور في مجتمع كمجتمعنا.

كان لا بد أن يوجد حائط صد، كان أحمد مستعدًا أن يلعب هذا الدور ولكنني رفضت هذا تمامًا.

أحمد بالنسبة إليَّ أخي وصديقي لكنني ما كنت لأكبِّل نفسي بتلك الورطة طوال الوقت.

كان ما حدث هو الحل الوحيد، وكان لا بد أن تندم كل الندم لفقداني وطفلي منك..

كلما سمعت اسمك شعرت أن رفضًا غير مسبوق حلَّ بداخلي نحوك على عكس كل التخيُّلات التي كنت أظن صحَّتها، وحين عاودت الاتصال بي لأنك تشعر بالوحشة نحوي لم أهتز، أو اهتززت لكني قرَّرت ألا أبدي أي تأثر.

ليس ثمة استمتاع بعذابي بعد فقداني لهذا الولد، ولن أتخلَّى عن رفضي الأبدي لالتقائك من جديد، ولو استطعت ذبحك كل يوم لذبحتك.. ذبحتك؟ هل أنا ذبحتك؟

أين ذلك الخنجر الذي كان أداتي في الاستمتاع بفصل رأسك عن جسدك، هل هي مجرد هلاوس؟ كيف وأنا بين النوم واليقظة أرى نفس التجلُّطات الدموية بين الوسادة والملاءة البيضاء ورأسك كثيفة الشعر بنفس العينين الجاحظتين بين راحتي.. كيف أستطيع تقبيل ذلك الفم البارد؟!

كم كنت أحلم أنني سأغتصب شفاهك حتى أستطيع التقام لسانك بين شفاهي ونحن متحدان في حالة غياب عن الوعي، غير

منشغلين سوى بصرخة انتشاء واحتكاك جسدينا المتراقصين التانجو في ليلة قارسة البرودة، وحبيبات العرق تسقط تباعًا فترسم موقعنا من الفراش.

كم أنت رائع، وكم استمتعت بجرأتك. لو أنني عاودت الاختيار لاخترت أن أساومك، فلحياة أنت فيها لهي خير من كل النتائج الحالية.

لم أكن لأقتلك بيدي، بل لم أكن لأتخلَّى عن متعتي الوقحة في حضرتك.. لم أكن لأبحث عن رجل آخر ولو توَّجني ملكة في عروش الحب.

أخذت تلك الحقيبة التي تضم الملاءات وأكياس الوسائد لأتخلَّص منها بعيدًا عن المنطقة كآخر دليل على جريمتي، فذهبت بها إلى نفس المكان الذي كنت قد ألقيت به جميع أجزائك باستثناء رأسك مهوَّش الشعر جاحظ العينين!

❖ ❖ ❖

(١٥)

ما زلت أحاول الاتصال بها ، ولا أستطيع الوصول ، هل غيرت أرقام هواتفها مرة أخرى؟! لماذا اختفت رغم يقيني أنها تحبُّني بشدة؟ هل بسبب معاملتي الجافة معها بعد خذلاني لها؟

الغريب أنني لا أجرؤ أن أذهب إليها ، وأخشى أن ألتقيها.. لم أضعف أمام أنثى مثلما حدث معها ، أكون مقرِّرًا فيما بيني وبيني أنني لن أضعف أمامها ، وحين أسمع صوتها أو أراها في أحد الأحلام أشعر بالرغبة الجارفة في احتضانها ، بل وفي مضاجعتها أيضًا.

لماذا تعاود الظهور كل فترة في مناماتي؟ هل ما زال لديها أية مشاعر نحوي بعد ما فعلتُ؟ أنا فعلاً لا أستحق أي شيء.. هذه المرأة حفرت بداخلي نهرًا.. يستوعب الأشياء والأحداث بعمق غير مسبوق.

❖ ❖ ❖

صرت أنهمك أكثر في الأحداث العامة ، وأحاول التعاطف مع السيد الرئيس الذي قرَّرت تبني الدفاع عنه ، رغم عدم قناعتي الداخلية به ، فرحت أهلِّل من موقعي على صفحتي بـ"فيس بوك" وأصبحت أحد الداعين الأساسيين لمؤازرته والوقوف إلى جواره في المحنة التي تمر بها مصر ، وفوجئت أن عدد الإعجابات بما أكتب تتضاعف ، لم أكن أصدق أن لهذا الرجل كل تلك الشعبية.

لم يسلم من قذاعة لساني وتهكُّمي أحد. لا فريق الإخوان المسلمين ولا جماعات المثقفين المدَّعين الذين انقسموا إلى فريقين أحدهما يمسح الجوخ، والآخر ينتقد الوضع الراهن على استحياء شديد مخافة الردع السائد على كل المستويات، ولا قيادات الدول الأخرى التي تحاول زعزعة مكانة مصر في العالم لحسابها الشخصي.

وحين شعرت أنني أنفخ في بوق مثقوب وشبَّت أحداث غزة، والصراع بين حماس وإسرائيل الذي راح ضحيته مئات من المدنيين الغزاويين أطفالاً ونساءً وشيوخًا، رحت أحرِّك دفة نقدي وتتبُّعي للحمساويين، وتتبَّعت القضية على صفحتي منذ أيام حرب ٤٨، ولم يسلم حتى المجتمع الدولي من انتقادي، فكيف يتركون مئات الأطفال يموتون دون تدخُّل لإنقاذهم؟! ضمنت أن تلك القضية ستشغلني لأيام، بعدها أفكر ممَّ أسخر فيما يستقبل من الأيام! دائمًا هناك الجديد الذي يستحق السخرية!

❖ ❖ ❖

(١٦)

ظـل الأمـر مختلطًا عليَّ.. لأيام.. وإذا بهاتفي يدق فأسـمع تلك الكلمات.. "ماتصدقنيش.. لو قلت نسيت ليلة واحدة من لياليك".

تملَّكتني حالة ذهول...

كيـف يدقُّ هاتفي باسـمك؟ هـل أنت حيًا ما زلـت؟ حقًّا! وما هذا الذي فعلتُه معك، وكيف أقنع نفسـي أنني مسـتقرة نفسـيًا وأنني غير مصابة بهلاوس سمعية وبصرية؟!

ما حدث لا يمكن أن أحكيه لأحد ولا حتى لصديقتي الأقرب التي أصيبت مؤخرًا بحالة لا مبالاة مسـتمرة حتى صار اهتمامها بتفاصيلي يساوي صفرًا كبيرًا كصفر المونديال الذي حصلت عليه مصر حين ترشَّحت لإقامة كأس العالم على أرضها.

إذن كيف سأهتدي إلى ما يحدث.. لم أملك شجاعة الرد على رقمـك.. رقمك.. أيـن هاتفك؟! ألم يكن معك حيـن جئتني لآخر مرة؟ ألـم تكن كل متعلقاتك معك؟ فأين ذهبت؟ أين هواتفك، وحافظـة نقـودك الخاليـة إلا من بطاقتـك الشـخصية وعدد من البطاقات الصغيرة التي دوَّنت فيها بعض ملاحظات تخصُّ عملك أو أرقام هواتف بلا أسماء، أين سلسلة مفاتيحك التي كانت مع تلك الأشـياء؟! هل كان ذلك كلـه وهمًا؟ محض وهم! هل صار النسيان رفيقي إلى هذا الحد؟

ألـم أقـرر أن أضع كل تلك الأشـياء في آخـر حقيبة تخلَّصت

منها ، حيث رأسك مهوَّشة الشعر وعينيك الجاحظتين.

❖ ❖ ❖

في جولة بشوارع وسط البلد التي أخبرها جيدًا كنت أشتري ملابس داخلية بدلاً من تلك التي اهترأت من إهمالي المتواصل لنفسي مؤخرًا ، وجرابًا لهاتفي الجوال ، أخذتني قدماي في طريقي إلى محطة مترو محمد نجيب لأن محطة السادات ما زالت مغلقة.. لشد ما سررت حين رأيت أحد بائعي الفاكهة يعرض العنب البناتي ، تلك الفاكهة الملائكية من فواكه الجنة.. دون تردُّد اشتريت بعض العنب والمانجو وأكملت سيري.

وكأن العنب هو سبب مروري بهذا المكان ، فلو كنت أقصد المحطة دون محل أكسسوارات الهواتف الجوالة لأكملت طريقي من محمد فريد إلى عابدين ولكن لأن هذا العنب ناداني سلكت شارع جواد حسني!

ما زال يؤرِّقني هذا الاتصال الغامض من رقمك المسجل على هاتفي.. قبل أقل من مرور أسبوع على ما فعلته بك.

هل أنت حي؟!

كيف إذا كنت قد عبَّأت الأكياس البلاستيكية بقطع متفرِّقة من لحمك؟!

نعم تذكرت شيئًا مهمًا.. خصيتيك وعضوك الذكري ، فقد احتفظت بها في الثلاجة.. أين هي؟! أذكر أنني وضعتها بالفريزر في كيس بلاستيكي شفاف.. سأبحث عنها فورًا...

❖ ❖ ❖

(١٧)

أحـاول أن أبتعد عن طريقها تلك الأيـام.. ولكنني لا أفلح في هـذا تمامًـا.. صورتها تتجسَّـد أمامي كأنها حاضـرة في أكثر لحظات غيابها.. أعترف الآن أنني أفتقدها.. أفتقد حنينها ودفئها وحنانها عليَّ.. الأنثى الوحيدة التي أشعرتني بالأمومة، وأغرقتني بالأنوثـة، وأقنعتنـي أنني أقـوى رجل على وجه الأرض، سـأصل إليها.. هذا قرار نهائي.

أشـتهيها.. أرغب فيها بكلِّيتي.. أفتقد التحامي بها، وذوبانها الكامل بين ضلوعي، وكأنني أدمنتها.. عشرات النساء يحاولن التقـرُّب إليَّ وأنا أشـعر بالفتور، ولا أريد أيهـن، لا أرغب في أي أخرى سـواها. لم أسـتطع أن ألمس أخرى بعد افتراقي عنها، لم أكـن أبـدًا أنوي أن أفارقها، حتى لـو عرفت غيرها، لكن هذا الخنجر المسـموم الذي طعنتني به في هذا التوقيت القاتل كان مقيتًـا، لماذا في هـذا الوقت الذي صرت أقرأ كل الأحداث في حياتـي على أنها مؤامرات تحاك ضدي، وتلك الزوجة التي تتفنَّن في إخراج الملفات السوداء أمام أهلها ماذا لو عرفت بهذا الأمر؟! لا أسـتبعد أن تؤجـر بلطجيـة وتكلِّفهم باختطافـي، وحينها لن يستطيع أحد الوصول إليَّ، معتمدة على فكرة أن أهلي يعيشون في تلك المنطقة النائية بعيدًا تمامًا عن القاهرة.

أيتها السماء تدخَّلي الآن.. أحتاج إنصافك أيها الرب الكريم.

لست شريرًا إلى هذا الحد ، أنا أعشق تلك المرأة الطيبة ، ولو التقيتها من جديد سأطلب منها الصفح والعفو عن جرمي مرتين ، مرةً لأنني خذلتها حين أخبرتني بحملها ، وطلبت منها التخلُّص منه فورًا ، والأخرى حين التمست عندي الملاذ بعد الجرح ، وأدرت لها ظهري دون حتى سؤال عن حالها بعد الجراحة ، أنا حتى لم أعرض عليها أن أشاركها في تكلفة العملية. كم كنتُ دنيئًا منحطًا يا إلهي!

سأذهب إليها في مكان عملها ، هذا آخر ما توصلت إليه.

❖ ❖ ❖

(١٨)

المـوت يمارس علينا سـطوته.. بمنتهـى البـرود.. والجبروت، لماذا تفرض وجودك بهذا الشكل بعد رحيلك؟؟

فتشت في الفريزر كالملدوغة عن ذلك الكيس البلاستيكي الصغيـر.. وجدته فعلاً.. خصيتان منتفختـان وأنبوب جلدي مرتخ تمامًا ليست له ملامح عضو ذكري حتى لطفل، ما بالي بعضوكَ الطويـل الحاد صارم الملامح؟! ربما هو فـارق الموت من الحياة! إذن لمن هذا الاتصال الغريب من رقم هاتفك؟!

ليـس أمامـي سـوى الانتظار، هل علـيَّ أن أذهـب إلى مكان عملـك وأستشـفُّ مـا يشـيع عـن اختفائـك، أم أنني بهذا أسـوِّغ لفكرة أن الجاني يحوم حول جريمته؟! هل أنا حقًا جانية؟

ألم تكن تستحق القتل؟!

رعشـة بطني التي أُكرِهتْ على التخلُّص من جنيني تجزم أن هذا ليس سوى قصاص.. أليست شرائع الحياة ومبادئ القانون أن من قتل يُقتل؟!

يبدو أنني سـأظل لفترة لا أسـتطيع النوم سـوى بعد استخدام المهدِّئـات.. هـل علـيَّ أن أذهب إلى إخصائي نفسـي؟! ماذا أقول لـه؟! هل أخبره أنني ذبحت رجلاً بعد أن مارسـنا الحب معًا؟! هل أقول له إنني لست واثقة أن هذا حدث؟ هل أريه دليل إدانتي؟

ولو تراجعت عن الفكرة فماذا سـأفعل؟ كيف أنام؟! كنت

فـي كل السـنوات التي مضت وقبل قصـة الحمل تلك حين أضع رأسـي على الوسـادة قبل أقل من خمس دقائق أكون قد سافرت إلـى عالم الأحلام، إلا فـي القليل النادر.. إنها المـرة الأولى التي يخاصمني فيها النوم الطوعي تمامًا..

أتسـاءل عـن السـبب؟ ما تلـك السـذاجة؟ أظـن أن هـذا أمر طبيعـي، فأنـا لـم أقتـل من قبـل، لم أرافـق ذاكـرة قاتـل لأعلم كيف يتصرَّف.. الأمر صعب.

هل أتجاسر أنا وأطلب رقم هاتفه؟ لا بد أن أفكر في حل...

مخي مشـلول لا يسـتطيع التوصل إلى أي حل، اهتديت فقط إلـى أننـي يجب أن أسـتخدم رقمًا غيـر مسـجل البيانات كـي لا يكـون دليـلاً ضدي في وقت ما.. اشـتريت خطًا من على رصيف محطة المترو وقمت بتشغيله.

طلبت رقم هـاتفه... سـمعت صوت جرس علـى الجهة المقابلة... شـعرت برعشـة آنية حتى أنهى الهاتف الـدق دون رد، لـكن معنى سماعي الجرس أن الخط يعمل... من يحمله إذن؟ هذا هو السؤال...

حاولـت الاتصـال مرة أخـرى في المسـاء، أتانـي صوته على الجهة المقابلة..

: آلو.. آلو..

لا يمكـن أن أخطـئ صوتـه.. أصابني الهلـع، فكيف لي أن أخطئ صوتـه؟! عاودت الاتصال، وعاود الـرد... بنفس النبرات.. هل كنت أحلم إذن؟!

❖ ❖ ❖

(١٩)

عـامٌ كامـل مرَّ ومهنَّد محبـوس احتياطيًا علـى ذمة قضية لم يـدرِ لـه فيهـا تهمة ولا جريرة سـوى تلك اللسـتة بالتهـم الجاهزة المسـرودة للجميـع، رغم أنهـم أفرجوا عـن عدد مـن المعتقلين مـن أحـداث النهضة ورابعـة العدويـة، وأحداث رمسـيس الأولى والثانية، إلا مسجد الفتح!!

تمَّـت إحالتهـم إلـى المحاكمة فقـط منذ نحو ثلاثة أشـهر، ولا زالت الجلسـة الأولى تحت تحديـد موعد، ومؤخرًا تم تحديد موعد لها، ولكن تم تأجيلها للأسف، وها نحن بانتظار الموعد خـلال يوميـن أو ثلاثة على الأكثر، ويظـن الكثيرون أن خروج المعتقلين في القضية قد يكون بعد ثلاث جلسـات، إما بحكم البـراءة، أو بالاسـتبعاد تمامًا من القضية، ولكنني أشـعر أنهم سيقضون سنوات في هذا المكان للأسف!

تـرى لو حدث هذا، فمن سـيقتصُّ لهـم، وأي حكمٍ يرضيهم بعد ضياع سنة من أعمارهم رهن الحبس؟!

أشـفق على مهند لأنه يلاحـظ أن أمه تحديدًا فـي زياراتها له تكتم أسـئلة تريـد أن تصارحه بها لكنها تخشـى ردود أفعاله، وتخشى أن تُصدم في أفكاره التي تظن أنها تغيَّرت كثيرًا، فهل تغيَّرت أفكاره فعلاً؟!

هـل لأنـه أطلقتـه لحيتـه صـار ينتمي إلـى الإخـوان، أو صار تكفيريًا جهاديًا؟!

كانـت عينـاه تقولان لهـا: "اطمئني يـا أمي فلن أكـون يومًا سـوى نفسـي. أنا لـم أتحوَّل، ولم تتـم أخونتي علـى الإطلاق، ما زلت رافضًا منهم ما كنت أرفضه، وإن تكشَّـفت أمامي حقائق كثيـرة كانت غائبة منها ما يدينهم أكثر، مثلما منها ما يبرئ سـاحتهم مـن بعض التهم الجاهزة، ما أدركـه حقَّ الإدراك أنني كما أنا.. مسـلم وسـطي معتدل، أحكِّم عقلي بما لا يتنافى مع شرع اللّه".

كان يـود لـو أنه يطمئنها قائلاً: "لا تقلقي عليَّ يا أمي، فحين يأذن اللّه لي بالحرية سـأكمل دراسـتي، وسأُتمُّ اختراعي مثلما حلمـت به ومثلما رسـمت طموحـي تمامًـا". كان يتمنى فقط أن يخـرج وحينهـا يثبت لأمـه على وجه السـرعة أنه كمـا هو، وأن تعبها ومجهودها هي وأبوه لم يضِع هباءً.

ولكـن هناك مـا يخفيه عنهم، وهـو أنه يتشـوَّق للحرية أيما شوقٍ، ويطمع في استنشاق هواءٍ بطعم الفضاء.. بطعم التحرر دون قيود، دون أقفال سجن مهما اتسع فهو سجن مرتفع الأسوار، في صحراء قاحلة حارقة الشمس، جدباء الملامح.

اشتاق إلى جهاز الكمبيوتر، وإلى شبكة الإنترنت، واشتاق إلى أصدقائه، بل وصديقاته اللائي لم يعلن معرفته بأيهن، حتى لو فرغت لستة الأصدقاء المعلنة منهن، فيومًا ما سيوجدهن على خارطة حياته، ويسـتمتع بوجودهن، اشتاق إلى فتاة يراها فيهتز قلبه لجمالها، أو شـياكتها، أو حتـى لباقتها. عام لم يرَ فيه بنتًا

جميلـة ، إلا فـي زيارات نـادرة يكون خلالها مشـغولاً بأهله دون سواهم ، فلا يستطيع التركيز لو رأى مع أحد رفاق الزنزانة أختًا أو ابنـة جميلة للحظات لا يفتأ أن ينسـى ملامحها بمجرد صعوده إلى العنبر مع باقي الرفاق.

اشتاق حتى إلى ممارسة العادة السرية ، وإفراغ تلك الشحنات الزائـدة ، والتـي ليـس أمامه سـوى ممارسـة التماريـن الرياضية الجماعية لإفراغها فيها وبعض مرات الاحتلام القليلة التي تحدث بمحض الصدفة أثناء النوم!

المعتقـل تجربـة لا بأس بهـا ، لكنها ربما تكـون في توقيت قاتـل ، ولا أحـد يدري ربمـا يغيِّر هذا الكثير فـي مصير مهند ، سيخرج من هناك قريبًا جدًا ، هذا يقينه الذي يصدِّره لنا ، وسيتم دراسـته في الهندسـة بأحسـن ممـا كان يتوقَّع كمـا وعدني ، لكنه لن يتغافل عن حق الوطن عليه ، هو وكل رفاقه من أولئك الشـباب الذي ذاق مرارة القهر والذل في المعتقلات والسـجون ، ولن يتركوا مصر نهبًا لمافيا العسكر ، ولن يتركوها لتدبيرات الإخوان أيضًا ، مصر ملك للمصريين ، وهم المكلفون بحمايتها وإنباتهـا النبـات الحسـن وليـس هـؤلاء الذيـن يعتبرون أنفسـهم أوصياء عليها ، أيًا كانت هويتهم!

❖ ❖ ❖

(٢٠)

لـم أكـن لأهـدأ بعـد أن تأكَّـدت أنه مـا زال حيًـا ، ولكن كيف؟! سأجنُّ.. هل لي أن أذهب إليه؟!

لا أدري كيف مرت الليلة ، شتات أفكار يتقاذفني ، ولا أدري مـاذا أفعـل؟! ولم أعتد أن أظل هكذا حبيسـة ذاتي ، هل أتحدث مـع صديقتـي في الأمـر ربما تجد لي حـلاً؟! وماذا سـأقول لها؟! أقول لها لقد قتلته ثم فوجئت أنه يتصل بي؟! أخذت قرصَي مهدئ كنت قد استطعت الحصول عليه من الصيدلية القابعة في الشارع الخلفي بناء على نصيحة الصيدلي المتعجرف الموجود بها.

في الصباح استيقظت بمزاج بارد لا ملامح له يشبه ماء المطر الراكـد على جزع شـجرة مجـوَّف.. قررت أن أذهـب إلى عملي.. فصادفتنـي زوجة البواب جالسـة فـي ركن مـن الأرض الفضاء المقابلـة لعمارتنا حاسـرة الرأس ترتدي عباءة سـوداء متسـخة ، ووجهها مسـودٌّ كأنها لم تغسـله منذ أسبوع. لم أكن رأيتها منذ أيام ، ولا أدري ماذا أوصلها إلى هذه الحالة المزرية.. ألقيت عليها تحية الصباح فردَّت بانكسار.. سألتها : مالك يا أم سيد؟ فأجابت دون أن تحرِّك عينيها من الأرض وكأنها تحدث نفسها : يا سيد؟! انت فين يا سيد؟! سيد مالوش أثر باقي له ٧ أيام النهاردة...

قشـعريرة سـرت في بدني كله بلا سـبب واضح ، أكل هذا تأثُّـر لحـال المرأة المسـكينة؟! سـرت حتى وصلـت إلى محطة

المترو، وأنا أشعر بالإشفاق نحوها. ترى أين ذهب ذلك الفتى!

وأنا في طريق ذهابي إلى العمل قفز إلى ذاكرتي مشهد هُلامي وكأنه فانتازيا... بما أصابني على أثره شيء من الذهول..

سيد ابن البواب الطويل الممشوق الذي له نفس بنيانك القوي وعضلاتك الخفيفة، يمارس معي الحب في فراشي وكأنه أنت.. أو كأنه ظلك...

أشعر وكأنني في حلم بعيد، أو على الأحرى كأنني أتابع مشاهد فيلم سينما لداوود عبد السيد، حيث تلك المشاهد الرصينة، وفي نفس الوقت المموَّهة..

وما شأني أنا بسيد؟ وما شأن سيد بي سوى نظراته النارية التي كانت تشيِّعني في كل لحظة تصطدم بي في الرواح أو العودة يتفرَّس ملامحي وكأنه ينهش لحمي.. يعرِّيني حدَّ العظم... يرشقني بنظرات نهِمة ربما ترضع نهديَّ.. وتمضغ شفاهي وتفعل بي ما تفعل..

أين يمكن أن يكون اختفى سيد؟!

ذلك الفتى الذي لا يمكن الخوف عليه، فهو صديق لكل بلطجية المنطقة والمناطق المجاورة، وليس له عداوات مشهورة. سمعت صوت هاتفي مغنيًا "ماتصدقنيش لو قلت نسيت ليلة واحدة من لياليك" فنسيت سيد وأم سيد في الحال..

هي نغمتك مرة أخرى!

تجاسرت تلك المرة واستجمعت كل شجاعتي وحاولت أن أخفي ارتعاشة صوتي.. "آلو"..

: وحشتيييييييييييني!

(٢١)

دوامات تتداخل في دوامات.. من لي بعقلٍ يدرك ما مررت به، ويجد لي تفسيرات لما صرت إليه.. إنك لست فقط ما زلت حيًا، بل إنك تتغزّل في، وتحاول استقطابي نحوك من جديد!

لا أدري كيف مر عليَّ اليوم في العمل، أتذكر كل كلمة قلتَها، كل حرف. لا يذهلني شعورك بالندم، ولا تدهشني الوحشة التي تُعنوِن كل مفرداتك، ما يشغلني هو ذلك المشهد الذي لا يغيب عن بالي، وتلك النافورة من الدماء التي أغرقت فراشي، وذلك الرأس مهوَّش الشعر بعينيه الجاحظتين، وتلك النظرة الباهتة؟!

❖ ❖ ❖

في طريق العودة أمام العمارة المرتفعة التي أقطن بها.. وأم سيد في المدخل تصرخ وتولول وتصيح بمنتهى العنف.. "يا سيد.. يا سيد.. يا سيد".. شعرت وكأنها تعرِّيني بلا مبرر واضح. سرت باتجاه صوتها فرأيت عددًا من نساء الشارع يلتففن حولها، ساءلتها بصوت مرتعش: "إيه اللي جرى بس؟!"..

راعني أنها ممسكةً ببنطلون جينز كحلي، وتي شيرت رصاصي تتشمَّمهما.. "دي هدوم سيد... لقيت الشنطة قدام الأوضة فيها هدومه اللي كان لابسها، ابني راح فين؟! راح فين؟! ابني اتخطف.. أنا حاسة اني مش هاشوفه تاني.. مش هاشوفه

تاني.."، وغرقت في نوبة من البكاء..

حاولت أن أكذِّب ما أراه، لكنني لم أستطع، البنطلون الجينز الكحلي.. والتي شيرت فئراني اللون، والكيس البلاستيكي الذي كنت ممسكة به في أثناء خروجي في الصباح. كان معي وأنا أتجه إلى الخارج مع كيس الملاءات.. لكنني أخذت معي كيس الملاءات، ونسيت هذا الكيس أمام باب شقتي المجاور لباب غرفة البواب، كنت مطمئنة لأنه لا يحتوي سوى ملابس عادية لا تستدعي عودتي لأخذه. كان ما يهمني التخلص من كيس الملاءات.

❖ ❖ ❖

(٢٢)

شعرت بآلام شديدة في لثتي وفي أعصاب أسناني، إنه ألم غير محتمل، ودوار شديد أعي الآن جيدًا سببه.

فتحت باب الشقة وصوت أم سيد عالق في أذني يأبى التراجع.. "يا سيد.. يا سيد.. يا سيد"!!

الألم يتفاقم.. لا أستطيع احتماله أكثر من ذلك.. لا بد أن أذهب فورًا إلى طبيب الأسنان، تلك الزيارة التي أجلتها كثيرًا.. لم أخلع بعد ملابسي إثر عودتي.. حاولت أن آكل أو أشرب شيئًا، لكنني لم أستطع من شدة الصراخ الناشب في أسناني!

هاتفت الطبيب الذي كنت أذهب إليه حين تعاودني آلام الأسنان، وجدته موجودًا بعيادته، وأخبرته أنني في طريقي إليه.

وصلت إلى العيادة في أقل من ربع ساعة، انتظرت دقائق قليلة، لم يكن بأذني سوى نفس صوت الصراخ، وعقلي مشلول يحاول أن يفهم شيئًا فلا يستطيع.. كلما حاولت استحضار أي مشهد زاد الصراخ نباحًا في أذني "يا سيد.. يا سيد.. يا سيد"، وكأنه إعصار سيقتلع أذنيَّ من مكانهما.

نادتني الممرضة فأفقت بصعوبة.. دخلت إلى غرفة الكشف.. لمحني الطبيب متأزِّمة أكثر من ذي قبل.. قال لي: أهلاً يا مدام.. انتي مش بتيجي غير خلصانة.. شكلك تعبانة جدًا..

: ألم فظيع يا دكتور..

: اتفضلي على الكرسي..

جلست على كرسي الكشف.. فحص الطبيب أسناني ولثتي.. وأنـا أحاول أن أتابع ملامح القلق التـي تزداد على وجهه. تطاولت الدقائـق.. وكأن الطبيب يفتش عن شـيء مـا متحرِّيًا وجوده في فمي، وأنا لا أستطيع التساؤل لئلا أقطع تركيزه فيما يفعل. مر وقت طويل، ربما لا يقل عن ثلث سـاعة حين أطفأ الشاشـة التي يفحص بها فمي قائلاً: "اتفضلي"..

جلسـت قبالته على المكتب أنتظـر أن يتحدث.. ظل الصمت بطـلاً لأكثـر مـن دقيقة كتـب خلالهـا بعـض الأوراق، ثم قال بحسـم: من فضلك اعملي لي التحاليل دي بسـرعة، بسـرعة دي يعني تعمليها النهاردة.. أرجوكي بلاش استهتار زي كل مرة.

انتزعـت صوتي من ذهولي لطريقة حديثه: هو حضرتك قلقان من حاجة؟!

بأداء أكثر حسـمًا قال: أيوة. التحاليل دي تتعمل النهاردة. من فضلك، النهاردة.

أنا منتظر نتيجة التحاليل دي بأسرع وقت ممكن، وهاديكي مسـكن قوي عشان تقدري تنامي، وممكن تاخدي جرعة تانية منه بكرة لحد ما النتيجة تظهر وتجيبيها وتيجي فورًا.

فقلت في برود محايد جدًا: شـكرًا لحضرتك.

شـعرت أنني أجرِّر أقدامي كي أسـتطيع أن أواصل طريقي.. ترى أيتها النبوءة هذا حينك؟!

❖ ❖ ❖

بحثت عن أقرب فرع لأحد معامل التحليل الشهيرة، وطلبت إجراء التحاليل المطلوبة، لم يكن عندي فضول حتى أن أقرأ الورقة التي كتب فيها الطبيب تلك التحاليل ربما خمَّنت أنواعها، أخذ مني الموظف المسؤول الروشتة المكتوب بها التحاليل وطلب مني أن أستريح قليلاً. قرأت في عينيه نظرة إشفاق. جلست أنتظر نداءه.. قال لي إن تكلفة التحاليل بعد الخصم تسعمائة جنيه، وقال في أدب جم إن بإمكاني أن أدفع جزءًا الآن، والباقي وقت استلام النتائج. ابتسمت في امتنان، وقلت له: انت وحظك. اللي معايا هادفعه. لم أكن أذكر ما معي بالتحديد.. فتحت محفظتي وعددت ما بها فوجدت ستمائة جنيه سلَّمتها له، وقلت بنفس ابتسامة الامتنان: عند الاستلام هادفع الباقي.

أخذ مني المبلغ وسلمني الإيصال، وطلب مني الانتظار حتى يأتي من يسحب لي عينة الدم.

جلست.. لحظات قليلة وأتى شاب وسيم تملأ الابتسامة ملامحه، وفي ثقة وهدوء شديدين قال لي: اتفضلي حضرتك..

رددت بابتسامة: أشكرك.

سحب لي عينة دم حوالي ١٠ سم، ثم وضع لي لاصقة طبية مكان الإبرة، وقال لي: سلامتك. فرددت: اللّه يسلمك. النتيجة إمتى؟ فأجاب: بكرة الساعة ٩ مساءً، إن شاء اللّه.

عدت إلى البيت مشتَّتة الذهن بين مشهد أم سيد ومشهد الطبيب. مررت بالصيدلية أحضرت الدواء المسكِّن الذي

أشـار عليَّ به. شربت كوبًا من الحليب البارد لئلا أبتلع الأقراص المسـكِّنة علـى معدة خاويـة لأنني أعانـي من قرحة تنشـط مع المسكِّنات.

ابتلعت الأقراص المسكِّنة، وأخذت حمامًا دافئًا.. واسترخيت فـي فراشـي.. دوامات من الأفـكار تتقاذفني، ولا أهـدأ.. والألم يقهرني.. والنوم يداعب جفوني فأشعر بالغياب للحظات فيقذفني الوجع بكرة ملتهبة بين أسـناني فأفيق من نومي، وهكذا حتى غلب مفعول الأقراص المسكنة آلامي فنمت.

استيقظت من نومي على نوبة من الألم الشديد لا أدري من أين أتت. لم أكن أشعر بالألم إلى هذا الحد، فماذا حدث؟!

لـم أكـن لأسـتطيع الذهاب إلـى العمـل وأنا في تلـك الحال. تذكَّـرت أن الطبيـب قـال لـي لا مانـع مـن جرعـة إضافيـة من الأقراص المسـكنة حتى تظهر نتيجـة التحاليل وأذهب بها إليه. بالفعـل أخذت جرعة أخـرى مع كوب من الحليب البارد، فأنا لا أستطيع أن أمضغ أي شيء، فلن أجازف بطعام يستفز الأوجاع من جديد. قلت لنفسي ألم الجوع أهون كثيرًا من آلام اللثة القاتلة.

ظللت في فراشـي حتى موعد استلام التحاليل، والغريب أنني تركـت ابنتـي لجدتها ولم تسـأل هي عنـي ولم أسـأل عنها منذ أسبوع، يبدو أن مصيرها أن تبقى مع جدتها طويلاً!!

اخترق أذنيَّ صوت زغاريد وأغانٍ شعبية صاخبة وتجمُّع راقص في وسط الشارع.. حاولت تبيُّن الأمر فإذا بسيد ابن البواب يجلس في ثياب أنيقة حليق الذقن باسـمًا، وحوله عدد من خيرة شـباب

وبلطجية وعمال المنطقة، وروائح الحشيش ممزوجًا بدخان التبغ تعبق الشارع، لدرجة أن خدرًا خفيفًا سرى بأعصابي وأنا في الشرفة...

خرجت قبل موعدي بدقائق لأهنئ أم سيد بعودة ابنها، وأنا لا أعرف من أين أنتشل صوتي وسط ذهولي وتساؤلاتي التي ترتطم بجدران ذاكرتي المهترئة..

❖ ❖ ❖

وأنا في الطريق إلى معمل التحاليل سحبت بعض النقود من ماكينة البنك، وصلت إلى المعمل، دفعت باقي المبلغ واستلمت النتائج. لم يكن نفس الشخص الجالس على الكونتر أمس، بل هو زميل آخر له بارد الملامح، لا حياة في عينيه. سلمني المظروف مغلقًا دون أن ينطق.

أخذته وانطلقت.. قررت ألا أفتحه وألا أقرأ حتى ما فيه حتى أصل إلى عيادة طبيب الأسنان الذي ينتظرني فعلاً هناك.

حين وصلت لم يكن لديه كشف آخر، فأخبرته الممرضة بوجودي فأمر بدخولي إليه فورًا.

دخلت، سحب من يدي مظروف التحاليل دون أن ينطق ودون أن ينظر نحوي. فض المظروف بأعين يأكلها القلق، كان واقفًا.. جلس في مقعده وراح يتفحص الأوراق ورقة ورقة إلى أن انتهى منها جميعًا.. شعرت أنه يبتلع دمعة يجتهد ألا أراها، وأنا في برود شديد أتساءل.

: خير يا دكتور فيه إيه؟!

صمت للحظات شعرت أنها طالت قبل أن يقول: للأسف. مش هاقدر اخبي عليكي.. وواصل الصمت.

ابتلعت ذهولي وفتَّشت عن صوتي حتى انتشلته من تلك الحفرة البعيدة: كانسر؟!

فقال هازًا رأسه بالإيجاب دون أن ينظر في عينيَّ: للأسف!!

❖ ❖ ❖

(٢٣)

النبوءات تسكنني من بدئي حتى نهايتي...

كنت أوقن أنك ستعود ، لكنك حين تعود سيكون الوقت قد فات... كنت أوقن أن الحياة أهون من أن نبكي عليها..

مشاهد مختلطة..

ابنتي التي ستحيا دون أمٍّ بعد أن فقدت أباها.. لا أحد يموت خلف أحد. ستعيش.. وتكبر.. وفق ما قدِّر لها!

ابني الذي لم أنجبه.. رعشة بطني قبيل التخلُّص منه ، وبعد ارتكابي ذلك الجرم أيضًا.. إلقائي باللوم عليك لأنك شريكي في الجريمتين!

عشقي إياك حدَّ الجنون دون أدنى اعتراف.. ومرارة خذلانك إياي التي ظلت وحدها ذكراك بداخلي.. بعد كل الروعة التي عشتها معك، وذلك الشغف المغاير في حياتي بأكملها.

سيد.. الذي عاود الظهور فجأة فإذا بي أحيا مشاعر مختلطة من جديد ، فلمن إذن ذلك العضو المرتخي وهاتان الخصيتان المنتفختان؟!

من ذُبتُ بين ذراعيه سواك إذن؟! ما فارق الواقع من الخيال؟! أليس تلك الأشياء المادية الملموسة.. قطع اللحم تلك التي أمسك بها بين أصابعي، وهل هي موجودة الآن، أشك! لماذا فقدان

الذاكـرة الجزئي يداهمنــي بحدة؟! هل أذهب إلى النهر أسـائل دواماته من صاحب تلك القطع من اللحم التي أطعمت أسـماكه إياها؟!

وهـل تدركني الإجابـة ، أم أنها ستتلاشـى كدوامة صغيرة مرتبكة تذوب بين الدوامات الكبار؟!

نفـس الأغنيـة تصـدر عن هاتفـي فتزيد غرقي فـي أفكاري السـوداء وأنا أفتح باب الشـقة متمنية أن أغـوص في أقرب مقعد يصادفني... "ماتصدقنيش لو قلت نسيت ليلة واحدة من لياليك"!

(تمت)